معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي

٤١ ـ ١٣٢هـ

تأليف
الدكتور عبد العزيز شرف
الدكتور عبد المنعم خفاجي

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي

٤١ – ١٣٢هـ

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

الطبعة الثانية
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
شارع عبدالخالق ثروت- تليفون ٣٩٢٣٥٢٥- ٣٩٣٦٧٤٣- فاكس: ٣٩٠٩٦١٨- برقياً: دار شادو- ص.ب: ٢٠٢٢- القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLI SHING — DISTRIBUTIO
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقــــديم الكتاب

العصر الأموى الكبير الذى امتد تسعين عاماً أو يزيد ، كان من أهم العصور الحافلة بالمعارك الفاصلة فى التاريخ الإسلامى .

فلقد امتدت رقعة العالم الإسلامى فيه مسافات ومساحات كبيرة ، حتى أشرق نور الإسلام من الأندلس إلى حدود الصين ، من خلال الفتوحات الإسلامية الأموية المظفرة التى نشرت الإسلام فى رقاع كثيرة من أوربا وإفريقيا وآسيا ، وظهر قواد مسلمون عظام ضحوا بالنفس والنفيس من أجل أداء رسالة الدعوة الإسلامية ، ونشر العقيدة المحمدية والقرآن الكريم واللغة العربية فى كل مكان . ولقد بدأت بواكير الحضارة الإسلامية فى هذا العصر الحافل بأسباب التقدم والرخاء والثقافة .

ولذلك حرصنا على التنقيب عن هذه الصفحات المطوية فى إطار اهتمامنا بالدعوة الإسلامية والإعلام الإسلامى ، إثراءً للبحوث الجديدة حول الحضارة الإسلامية أدباً وفكرًا وإعلاماً .. وقد ركز هذا الكتاب على الفتوحات الإسلامية فى ظلال الحضارة العربية التى ترعرعت فى دولة الأمويين منذ أسسها معاوية ، وأعاد فيها الوليد بن عبد الملك عهد الفتوحات الإسلامية التى سادت طوال عهد عمر بن الخطاب ، فقد فتح الوليد إقليم ماوراء النهر ، وحوض نهر السند ، وشمال إفريقيا والأندلس .

ويظهر لنا التاريخ أن الأمر لم يستقم لمعاوية على إثر مقتل على بن أبى طالب مباشرة ، ولكنه مع ذلك حرص على استتباب الأمن فى ملكه ، وتقريب الرجال الأكفاء إليه وتوليتهم المناصب الكبرى فى الدولة العربية ، ومنهم عمرو ابن العاص ، الذى ولّاه مصر ، والمغيرة بن شعبة والى الكوفة ، وزياد بن أبيه . وحينما اعتلى يزيد عرش الخلافة فى دمشق بعد وفاة أبيه معاوية (٦٠ — ٦٣ هـ = ٦٨٠ — ٦٨٣ م) وجد فى الحسين بن على — رضى الله عنهما — منافساً قويًّا . وبوفاة يزيد انتقل الملك إلى ابنه معاوية ، المعروف باسم معاوية الثانى (٦٣ هـ = ٦٨٣ م) ، ولم يزد عهده فى الخلافة على أربعين يوماً . ثم تنازل عن الخلافة ، وبويع مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ = ٦٨٣ — ٦٨٥ م) الذى لم يستقر له الأمر إلا بعد جهد جهيد .

أما عبد الملك بن مروان فقد تولى بعده الخلافة تأكيدًا للنظام الملكى الوراثى (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م) ، وواجه ظهور التوّابين وثورة المختار ابن أبى عبيد الثقفى ، إلى جانب الخصومة بينه وبين ابن الزبير ، وكذلك ثورات الخوارج الأزارقة ، ولكن هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك عما كان يدور فى إفريقيا ، إذ أن البربر كانوا قد « جمعوا جموعهم فى مستهل خلافته ، وهاجموا العرب فى القيروان ، كما قتلوا عقبة بن نافع والى إفريقيا ، وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ، ولكن البربر والرومان قضوا عليه ، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان ، استرد القيروان وقرطاجنة ، وهزم الرومان والبربر ، ومد النفوذ الإسلامى حتى شواطىء المحيط الأطلسى » .

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم يقدم صفحات من التاريخ الإسلامى ، توضح الجوانب الإيجابية فى معارك الدولة الأموية من أجل نشر الدعوة الإسلامية ، وذلك من خلال الفصول التى تستعرض تاريخ معاوية بن أبى سفيان ، والولاة الذين تولوا الأمصار فى خلافته ، والفتوح فى عهده ، وفى

عهد خلفاء بنى أمية ، ولاسيما الفتوح التى تمت فى عهد الوليد بن عبد الملك فى إقليم ما وراء النهر ، وإقليم السند ، وشمال إفريقيا ، وفتح الأندلس .

من أجل ذلك كله نقدم هذه الفصول إلى القراء فى كل مكان راجين أن ينفع الله بها الشباب المسلم وأبناء الأمة الإسلامية ، استلهاماً لحضارة الأمس من أجل بناء حضارة اليوم والغد .

والله ولى التوفيـــق .

المؤلفــان

الفصل الأول

الخلافة الأموية تحكم العالم الإسلامي

— ١ —

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ — ٦٦١ م على مقاليد الحكم ، وشئون الخلافة الإسلامية ، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق فى الشام ، وظلت هى العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م .

ودمشق هى مدينة « جِلَّق » القديمة التى أشار إليها حسان فى شعره :

لله دَرُّ عصابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يوماً بِجِلَّقَ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

ويكاد يكون الإجماع على ذلك (١) .

وسموا دمشق : جِلَّق الخضراء والغوطة ، وذات العماد ، ولُقبت بالفَيْحَاء ، والفيحاء : الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر المتوسط نحو ستين ميلا ، وتقوم فى نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون فى التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب .. وهى مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد « بَرَدَى » الذى كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة . وقد استولى على دمشق فى القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعنة والأرمن .

---

(١) دمشق ، محمد كرد على ، وقيل إن « جِلَّق » هى كورة غوطة دمشق كلها .

واقتحمها إسكندر المقدونى ، ودخلت فى حكم خلفائه ضمن دولة اليونان ، ثم صارت أغلى درة فى الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسى . وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويدًا رويدًا ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب ، والشام ، وبلاد فارس ، ومصر .

وفتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة ـــ ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها ، وانتصاره على بنى غسان فى يوم فصحهم ، ورفعه للعقاب راية الرسول فى أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها ، فأبو سفيان بن حرب شيخ بنى أمية وأحد زعماء قريش كان كثيرًا ما يفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخارى فى صحيحه .

تولى فتح المدينة كُلٌّ من أبى عُبيدة بن الجَرَّاح وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحاً كلها فى العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول : سلام عليك ياديار سوريا ، سلاماً لا لقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بيزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات عام ٢١ هـ ـــ ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن أبى سفيان من قِبَلِ عمر بن الخطاب ، وكان مِنْ قَبْلُ لِى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرًا على دمشق عشرين عاماً قبل أن يصبح خليفة قبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بنى أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة لخلافته ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاماً أخرى بدأت بتنازل الحسن بن على له عن الخلافة وانتهت بوفاة معاوية .

— ٢ —

تولى مقاليد الخلافة فى دمشق طيلة العصر الأموى ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامى كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجىء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » .. ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، ومجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر هم :

١ — معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠ هـ : ٦٦١ — ٦٨٠ م) [١] .

٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٤هـ : ٦٨٠ — ٦٨٣ م) .

٣ — معاوية بن يزيد (٦٤ — ٦٤ هـ : ٦٨٣ — ٦٨٤ م) .

٤ — مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ : ٦٨٤ — ٦٨٥ م)[٢]

٥ — عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ : ٦٨٥ — ٧٠٥ م)[٣]

٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٥ — ٩٦ هـ : ٧٠٥ — ٧١٥ م) .

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ : ٧١٥ — ٧١٧ م) .

٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ — ١٠١ هـ : ٧١٧ — ٧١٩ م) .

٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ : ٧٢٠ — ٧٢٤ م) .

---

(١) كان من أعظم ولاته زياد المتوفى عام ٥٣ هـ .

(٢) بدأت فى عهده ثورة ابن الزبير السياسية عام ٦٤ هـ واستمرت حتى قضى عليها عبد الملك عام ٧٣ هـ .

(٣) أشهر ولاته هو الحجاج (٤١ — ٩٥ هـ) .

١٠ ــ هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ : ٧٢٤ ــ ٧٤٢ م) .
١١ ــ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ــ ١٢٦ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٤٤ م)
١٢ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ ــ ١٢٦ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٤٤ م) .
١٣ ــ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ ــ ١٣٢ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٥٠ م) .

هؤلاء خلفاء بنى أمية ، شموس دمشق وملوكها وحكامها ، طيلة واحد وتسعين عاماً هى مدة حكم الأمويين فى العالم الإسلامى .

وقد بنى الخلفاء فى دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فاتسع عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطناً رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين ماصارت به كعبة المسلمين فى كل مكان ، وأعظم مدن العالم وأجملها ، ونَعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، وأبان العرب ــ كما يقول جستاف لوبون ــ عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية ، ودخلوا فى الإسلام أفواجاً ، وتعلموا العربية .

وكانت دولة بنى أمية تعتز بالعرب وترفع من شأنهم ، ولا تنظر إلى الموالى نظرة رعاية أو تقدير ، فدولة بنى أمية عربية أعرابية (١) وكانت بنو أمية لاتستخلف بنى الإماء (٢) ولاتبايع لبنى أمهات الأولاد (٣) وذلك كله قد نقضته الدولة العباسية التى يصفها الجاحظ بأنها عجمية خراسانية .

---

(١) ٣/٢٠٦ البيان والتبيين .
(٢) ٤/١٨٠ العقد .
(٣) ٤/١٨١ العقد . وكان الحجاج يسم أيدى النبط بعلامة يعرفون بها (٧ : ٦٥ الحيوان ط الحلبى) .

وكذلك حافظ الخلفاء الأمويون على الصبغة والثقافة العربية ، فَنَشَّئُوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة ، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع ، ويعقدون المجالس الأدبية ، ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء ، ويكافئونهم بجزيل العطاء وسنى المواهب ، فوق عطفهم وبرهم بالعرب ، وقصر وظائف الدولة عليهم وحدهم ، من ولايةٍ وقيادة جيوش ، وتنظيم دواوين ، إلى غير ذلك من كبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة .

وهكذا شجعت دولة بنى أمية الجنس العربى ، وألقت فى يده زمام أمور الدولة ، بعكس بنى العباس .

وقد نمت الحواضر الإسلامية الكبرى كالكوفة ، والبصرة ، والفسطاط ، ومكة ، والمدينة وسواها من الأمصار .

وكان خلفاء بنى أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التى فُتحت عام ٩٢ هـ — ٧١١ م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التى أقام فيها عقبة بن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ — ٦٧٠ م ، وصارت منذ إنشائها موطناً من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب ، والشام ، وبلاد العراق ، وفارس ، وخراسان ، وداغستان ، وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣ هـ — ٧١٣ م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون فى الشام على القسطنطينية عدة مرات ، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول ، وعلى جزر البحر المتوسط : صقلية ، سردانية ، مالطة ، واحتلوا قبرص ، وكريت ، ورودس ، وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحربن عبد الرحمن عام ٩٩ هـ — ٧١٧ م ، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها ، وقام عبد الرحمن الغافقى عام ١١٤ هـ — ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ، ووصل بجيشه الكبير إلى بواتييه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقى وجيشه الباسل ، فى يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ — ٢ أكتوبر ٧٣٢م ، وقتل الغافقى وانسحب

المسلمون ، وفى هذه الهزيمة يقول أديب فرنسى مشهور ، هو مسيو كلود فارير : « فى سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التى نكبت بها الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربى طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هى الفاجعة التى أريد أن أمقت ذكراها ، وأعنى بها الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقى ، ففى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى المتسامح السلمى .. » وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ — ٧٠٦ م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسُمَرقند والصُّغْد وغيرها ، وتعمق فى بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر ، وهى أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٩٦ هـ — ٧١٥ م رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام . ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك فى حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة فى عهد سليمان بن عبد الملك ، ودخلت بلاد النوبة فى حكم المسلمين ، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا .

هذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون وتركوه تراثاً خالداً من تراث المسلمين الروحى والفكرى ، ولايمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ، التى كافحت من أجل الحضارة والمدنية ، وتقدم الفكر والثقافة ، والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ، ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة ، التى سعدت بحكم المسلمين خلال تلك الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

— ٣ —

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تُدار على أحدث نظام فى الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشئون العامة ، وكان يختار ولاة يُنيبهم عنه فى إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ ــ **الحجاز** : وينتظم المدينة ، ومكة ، والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة ، وكان يُضاف إليه أحياناً بلاد اليمن ، وأحياناً تكون مستقلة بأمير .

٢ ــ **العراق** : وينتظم الكوفة ، والبصرة ، وخراسان ، ويقيم الأمير فى الكوفة بعض السنين ، وفى البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تُضاف إلى إمارة العراق أحياناً .

٣ ــ **الجزيرة وأرمينية** : وتنتظم بلاد الموصل ، وأذربيجان ، وولايات أرمينية .

٤ ــ **الشام** : وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وَقِنَّسْرِين .

٥ ــ **مصر وإفريقية** : وتنتظم بلاد مصر وشمال إفريقية ، وكانت إفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوالٍ لها عن مصر ، ولما فُتحت الأندلس كانت تابعة لإفريقية ، وفى بعض الأحيان كانت تستقل بأمير .

وكان كل أمير يختار كذلك ولاة له على الأقاليم والمدن التى فى إمارته ، ويتمتع بالاستقلال الإدارى فى إمارته ، يقيم الصلاة بنفسه ، وإليه قيادة الجُند ، وجباية الخَراج ، والقضاء بين الناس .

ومع عُسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة . بوساطة البريد الذى استعمله معاوية وخلفاؤه .

وفى هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التى لابد منها لضبط شئون الدولة ، ومن بينها : ديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان الخاتم .

وكانت لغة الدواوين فى الولايات المختلفة بلغاتها ، إلى أن عُرِّبتِ الدواوين فى جميع البلاد الإسلامية ، وصارت اللغة العربية هى لغة جميعها فى شتى الأقاليم والإمارات فى العهد الأموى .

وقد كثرت الأحزاب السياسية فى عصر بنى أمية ، من أمويين ، وعلويين ، وشيعة ، وخوارج ، وغيرهم ، كما انتشرت ــ ببواعث سياسية ــ العصبيات القبلية بين العدنانية والقحطانية وغيرهما ، وذلك مما أدى إلى نشأة الأدب السياسى فى هذا العصر .

الأحزاب السياسية فى عصر بنى أمية

١ ـــ كان معاوية رأس الدولة الأموية ، داهية أَرِيباً حَصِيفاً ، وكان يعتز بأسرته الأموية اعتزازًا كبيرًا ، لتؤيد دولته الجديدة وملكه الناشىء الفَتِيّ .

وكان أظهر أعماله أنه نقل الحكم الإسلامى من خِلَافَةٍ شُورية إلى ملك مُستبدٍّ يحرص على تثبيته ودعمه وإعلاء صرحه ، ولو فوق جثث الضحايا وأشلائهم .

واستعان معاوية فى هذا بأسرته من بنى أمية وبنى عبد شمس ، كما استعان بالقبائل العربية المقيمة فى بلاد الشام وحواليها ، والتى أغدق عليها العطاء ، وهو والٍ لعُمر وعثمان على الشام ، ثم وهو يقارع عليًّ بن أبى طالب ويجالده بالسيوف فى سبيل الملك ، ثم وهو خليفة وأمير للمسلمين بعد تنازل الحسن بن علىّ له عن الخلافة .

وعمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها ببعض ، وتحريض بعضها على الآخرين ، وبذلك أحيا العصبية القديمة التى حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم ، كما حاربها أبو بكر وعمر طول عهد خلافتهما ، رضوان الله عليهما .

لم يكن معاوية يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما إلى أهل بيت الرسول ، ولا بالعرب المقيمين فى الكوفة والبصرة ، لأن الكثير منهم شيعيون ، ولكنه جهد فى استمالة العرب القاطنين فى بلاد الشام وعلى مشارفها ، كما جهد فى استمالة القبائل اليمنية ، وتزوج من إحدى بطونها من قبيلة كلب ، أم ابنه يزيد ، كما جهد فى استمالة القبائل القيسية وبعض القبائل المضرية إليه .

وفى سبيل ذلك أكثر من الوعد والوعيد ، وبَذَلَ الأموال ، وفرَّق العطاء ، وأكثر من الإغداق على أهل الحجاز ، وبخاصة مكة والمدينة ، لأنهم أصحاب الرأى النافذ بين المسلمين ، وضاعف عطاء الحسن والحسين أضعافاً كثيرة ، فجعله ألف ألف درهم ، وكان على عهد عمر خمسة آلاف .

وبذلك استتب الأمر لمعاوية الداهية العبقرى ، وكان يقول تصويرًا لدهائه وسياسته : والله لو كان بينى وبين الناس شَعْرَة ما انْقَطَعَتْ ، إنْ شَدُّوا أَرْخَيْتُ وإن أَرْخَوْا شَدَدْتُ .

٢ ـــ ولما مات معاوية لم يخلفه أحد فى الملك يشبهه فى الدهاء والسياسة ، فافترق المسلمون ، وشبت الثورات ، وكثرت الأحزاب : من شيعة أنصار بيت علىٍّ فى الحجاز والعراق ، وزبيريين يشايعون آل الزبير فى الحجاز وغيرها ، وخوارج خرجوا على الاستبداد والملك العَضُوض ، وأمويين يدافعون عن ملكهم ونفوذهم .

ووجد ملوك بنى أمية أن لاشىء يعيد إلى دولتهم هيبتها واطمئنانها إلا الاستبداد ، والعسف ، والطغيان ، فوكلوا بالعراق الحَجَّاج بن يوسف الثقفى ، يملأ الأرض رعباً وخوفاً وجَوْرًا ، ووكلوا بالبلاد الأخرى ولاة يأمرونهم باليقظة والحزم ، والدهاء والمكر والطغيان .

وهكذا ظلت الدولة تموج بالعصبيات إلى عهد انقضائها ، بل إنها كانت السبب الأخير فى القضاء عليها وتمهيد الأمر لبنى العباس .

٣ ـــ وكان الشعراء يغذون العصبيات ، ويلقون القصائد الجيدة التى تشيد بِذِكْرِ الأحزاب التى ينتمون إليها ، وتندد بمثالب الأحزاب الأخرى ، ومن ذلك أن الهاشميين أخذوا يحرضون الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، جاء فى مروج الذهب للمسعودى أن عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

ابن أبى طالب قال للكُمَيْت : « إنى قد رأيت أن تقول شيئًا تغضب به بين الناس لعلَّ فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض مانحب » فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب فى وصفهم وفضلهم على بنى قحطان ، وعَرَّضَ بما كان مِن شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قَمَرُ السَّماء وكُلُّ نجمٍ تشير إليه أيدى المُهتدينَا
وجدت الله إذ سَمَّى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينَا
لنا جعَلَ المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا الجَبِينَا

وقد ذاع هذا القول فى النزارية واليمنية فافتخر كل قبيل بما له من مآثر .. وفى العصر العباسى قال دِعْبِل بن على الخُزاعى ينقض على الكميت قصيدته ويذكر مناقب اليمن ، وَيُعَرِّضُ ، بل يُصَرِّحُ ، بنقائض غيرهم من قصيدة له :

أفيقى من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مَر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى يشيبن الذوائب والقُرونا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنَّا لِنُصْرَتِنَا هُجِينَا
لقد علمت نزار أن قومى إلى نصر النبوة فاخرينا

وهكذا قامت أحزاب سياسية فى هذا العصر كان لها كبير الأثر فى حياة الدولة ، ومن بينها حزب بنى أمية ، وحزب العلويين ، وحزب الزبيريين ، وحزب الخوارج ، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه وخطباؤه .

ونشأ عن إحياء العصبيات الممقوتة آثار كثيرة ، بعضها سياسى ، وبعضها اجتماعى .

أما الآثار السياسية فقد كثرت الخلافات والثورات والحروب بين العرب

بعضهم وبعض ، وبين العرب والموالى ، وبين أبناء وفروع الأمويين أنفسهم ، وكثر تبعاً لذلك الاضطهاد السياسى لخصوم الدولة .

وأما الآثار الاجتماعية فأنت تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة التفكير الجاهلى على الناس والساسة ، وبذلك انحرف الأمويون ــ بل الناس كلهم ــ عن منهج الإسلام الذى يجعل الناس إخوة متحابين ، ويفرض على الحاكم العدل والمساواة والحِرص على حريات الناس جميعاً .

ولقد واجه الأمويون فى بلاد الشام ظهور العصبية القبلية بين أهالى هذه البلاد ، من اليمنية والمضرية ، وكان الحكم الأموى يعتمد على اليمنيين ، فلما توفى يزيد ولحق به ابنه معاوية الثانى ، اشتد النزاع بين عرب الشام على مَنْ يتولى الخلافة ، ففى شمال الشام كانت قبيلة قيس متذمرة من الأمويين لاعتمادهم على اليمنيين ، فأصبحت بزعامة حاكم دمشق الذى خرج إلى مرج راهط (إلى الشرق من دمشق) وجاءته الأمداد من ولاة حمص وقنسرين وفلسطين . وهناك فى مرج راهط بايعت القيسية عبد الله بن الزبير .

أما قبائل اليمنيين فى بلاد الشام فتعصبوا لبنى أمية بما نالوا من الحظوة فى دولتهم ، ولأنهم أخوال يزيد بن معاوية ، وقد جاءوا جميعاً إلى الجابية (قرية من أعمال دمشق) . وكانوا ــ برغم اتفاقهم على أن تكون الخلافة لأحد الأمويين ــ مختلفين ، فمنهم من يريد خالد بن يزيد ، وآخرون يعترضون على توليته لصغر سنه ويفضلون عليه مروان بن الحكم ، ثم أجمعوا على مبايعة مروان بالخلافة ، على أن يخلفه بعد وفاته خالد بن يزيد ، وبعد خالد يلى الحكم عمرو ابن سعيد بن العاص .

ولما تم أمر الخلافة لمروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ ، خرج من الجابية فى جموع اليمنية إلى مرج راهط حيث توافدت جموع القيسية ، وهناك دارت بين الفريقين موقعة كان النصر فيها حليف مروان ، وبذلك توطدت سلطته فى بلاد الشام .

ولاشك أن موقعة مرج راهط كانت حربا بين القيسية واليمنية أكثر مما كانت نزاعاً بين بنى أمية وابن الزبير ، وظهرت العصبية القبلية فى الدولة الإسلامية بعد هذه الموقعة بمظهرها السياسى ، فانقسم العرب فى كل قطر إلى يمنية ومضرية .

على أن تعصب الخلفاء لقبيلة دون أخرى لم يظهر بصورة واضحة إلا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، الذى قضى فترة خلافته فى إصلاح أمور الدولة حتى نال رضاء جميع رعاياه .

ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واجه نزاعاً بين عرب الشمال والجنوب ، أو بين مُضر واليمن ، ذلك أن يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة فرَّ من السجن ولحق بالبصرة ، حيث انضم إليه كثير من يمنية العراق ، واشتد خطره ، وأصبح يهدد كيان الدولة ، فأرسل إليه يزيد ابن عبد الملك جيشاً كبيرًا ، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة يزيد بن المهلب وقتله . وكان من نتائج هذه المعركة أن انحاز يزيد بن عبد الملك إلى جانب القيسية ، وبذلك ضعف شأن العنصر اليمنى .

ولم يتبع هشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء القبائل المختلفة ، فلما رأى أن القيسية ، اشتد أمرها ، خشى من ازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ، رغبة فى إعادة التوازن بينهما ، فعزل الولاة المضريين وأحل محلهم بعض اليمنيين ، فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق ، وولى أخاه أسدًا على خُراسان ، ولم يلبث أن تحول عن اليمنيين إلى المضريين ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيَّار خراسان .

أخذت اليمنية تظهر استياءها من الأمويين بسبب مقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق من قِبَل هشام بن عبد الملك ، ورأى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذى ولى الخلافة بعد هشام أن يلزم جانب المضريين ،

فأثارت هذه السياسة عوامل السخط والغضب فى نفوس اليمنية ضد الوليد ، لأنه قتل زعيمهم وأقصاهم عن مناصب الدولة ، فتآمروا على التخلص منه طمعاً فى استعادة نفوذهم ، وما لبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فانحاز إلى اليمنيين وأخذ يولى العمال منهم ، غير أنه لم يستمر طويلا فى الحكم ، فقد توفى بعد ستة أشهر ، فآلت الخلافة من بعده إلى أخيه إبراهيم ، لكنه لم يحظ بالاحترام الذى لقيه من سبقه من الخلفاء ، وظل الأمر على هذه الحال ، إلى أن سار مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينية إلى الشام ، مطالباً بدم الوليد بن يزيد ، وانضمت إليه القيسية ليكيدوا لليمنية ، ومالبث أن تمكن من التغلب على جند إبراهيم ودخل الشام ، ثم بايعه أهلها ، وبذلك أصبح خليفة المسلمين سنة ١٢٧ هـ على أن مروان بن محمد ما لبث بعد أن آلت إليه الخلافة أن تعصب للقيسية فأثار اليمنية الاضطرابات والقلاقل ، كما خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وانضمت إليه اليمنية ، وقد اضطر مروان إزاء الفتن والقلاقل التى شغلته فى بلاد الشام إلى الانتقال منها إلى إقليم الجزيرة شمال العراق .

وفى إيجاز شديد نستطيع أن نلمح الآثار السياسية لقيام الحكم الأموى فى استقرار السلطان فى أيدى الحزب الأموى الحاكم ، وفى تصارع القوى السياسية فى الدولة فى هذا العصر ، والتى تتمثل فى الحزب الرئيسى ، وهو حزب بنى أمية ، وفى الأحزاب المعارضة ، من علويين ، وخوارج ، وَزُبَيْريين ، وسواهم ، وكانت سياسة الدولة عربية خالصة ، مما أثار حقد الموالى عليها وكراهيتهم لها ، ونجم عن هذه السياسة قيام الثورات السياسية فى عرض البلاد وطولها ، وعدم استقرار الأمن ، وقيام الدعاية السرية للهاشميين .

الموالى فى خدمة الدولة

واتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية ، فشملت الأندلس ، وشمال إفريقية ، والشام ، وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، وجزءًا من الهند ، كما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى سوى ذلك من النواحى والبلاد .

وخضعت هذه الأمم كلها للحكم العربى ، سواء منها الدول ذات الحضارة أو الدول التى لم تصطبغ بصبغتها ، فوجدوا فى الإسلام العدل والأمن والسلام ، وأخذوا يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة الدين والقرآن ، ولحاجتهم إليها فى التفاهم مع الولاة والحكام والعمال ، وهى فوق ذلك اللغة الأولى فى العالم كله آن ذاك ، فهى لغة الثقافة والآداب والعلوم والفنون والسياسة .

وكان لبُعد الموالى عن سياسة الدولة وشئونها العامة بإقصاء الأمويين لهم ، كما كان لانحدارهم من عناصر متحضرة أخذت بقسط من الثقافة والمدنية والمعرفة ، أثر كبير فى تفوقهم فى ميدان العلم والأدب .

فجلسوا فى مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلومه ، والحديث وروايته ، والتاريخ وأيامه ، ومفاخر العرب ومآثرهم ، كما جلسوا فى مجالس الأدباء والشعراء والرواة يثقفون أنفسهم بالشعر ، ويتأدبون بروايته وَبِنَظْمِه أحياناً .

فكان من الموالى الشعراء ، كزياد الأعجم ، وإسماعيل بن سيّار ، وأخيه موسى ، وبَشَّار .

وكان منهم العلماء فى علوم الدين والشريعة ، كنافع ، وربيعة الرأى شيخ الإمام مالك ، وسليمان بن يسار ، وكان من أعلم الناس وأفقههم ، وكانوا بالمدينة ، ومنهم مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء بمكة .

والحسن بن يسار ، والحسن البصرى ، وابن سيرين بالبصرة ، ويزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد فى مصر ، ومكحول بن عبد الله فى الشام .

إلى غير هؤلاء من الأعلام فى الدين والشريعة والحديث والتفسير واللغة من الموالى فى عصر بنى أمية .

ولما كانت اللغة القبطية ولغة الروم وآدابهما وثقافتهما لاتزال باقية فى مصر والشام ، واللغة الفارسية لاتزال ذائعة فى بلاد فارس وبعض جهات من العراق ، فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تكتب فى مصر باللغة القبطية ، وفى الشام باللغة الرومية ، وفى العراق وفارس بالفارسية ، وكان لابد من الاستعانة بالموالى فى هذه الدواوين للكتابة فيها ، وظل الأمر على ذلك مدة حتى حولت دواوين (١) العراق إلى اللغة العربية بأمر الحجاج ، ودواوين الشام فى عهد عبد الملك ، ودواوين مصر فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبذلك انفسح المجال للعرب فى هذه الناحية أيضاً .

وكان الذى نقل دواوين الخراج فى العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمٰن كاتب الحجاج ، وكان من الموالى . أما دواوين الشام فكانت بالروحية ، وكان يتولى أمرها سرجون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ، ثم نقلت إلى العربية على يدى سليمان بن منصور . وأما دواوين مصر فكانت بالقبطية وحولت إلى العربية فى عهد الوليد على يدى عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر . وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب .

---

(١) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أهل العطية « المرتبات » ثم نقل إلى المقر الذى يجتمع فيه الموظفون ومعهم هذه الصحف تعريباً .

معاوية بن أبى سفيان رأس الدولة الأموية
(٤١ ـــ ٦٠ هـ ـــ ٦٦١ ـــ ٦٨٠ م)

ـــ ١ ـــ

دان المسلمون للدولة الأموية التى أنشأها معاوية بن أبى سفيان تسعين عاماً (٤١ ـــ ١٣٢ هـ) أفضت الأقدار إلى معاوية منها بعشرين عاماً كاملة غير منقوصة ، وهو عهد ليس كبيرًا فى أعمار وحياة الممالك .

وينتسب معاوية إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان أمية ممن اتصل بهم الشرف فى الجاهلية ، فَسَاوَق (١) بشرفه ورفيع مقامه عمه هاشم بن عبد مناف ، فلا عجب إذا تنافس البطنان جاهلية وإسلاماً ، وكان لتنافسهما هذا الأثر البليغ فى مصاير الدولة الإسلامية .

وكان أمية تاجرًا كثير المال والعيال ، فكان له عشرة وَلَد (٢) امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وسفيان وأبو سفيان ، وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الْفِجَار (٣) ، كما قاد أبو سُفيان قريشاً فى حروبها ضد الرسول ﷺ وهو صاحب العير التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى ، وكان رئيس الجيش النافر لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه ،

---

(١) يقال تساوق القوم : تفاخروا ، وتسايروا ، وتنافسوا .

(٢) يُطلق الوَلَدُ فى اللغة على الذكر والأنثى ، والمثنى والمجموع ويعنى بها هنا الأولاد الذكور .

(٣) حرب الفجار وقعت بين قريش وحلفائها وبين هوازن قبل مبعث النبى (ص) وقد حضرها النبى وعمره زهاء عشرين سنة .

فكان أبوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبهما يُضرب المثل ، فيقال للخامل : « لا فى العير ولا فى النفير » .

ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، واتخذه رسول الله ﷺ كاتباً للوحى تقديرًا لمركز والده ، وتألُّفاً منه لأسرته ، كما أمر رسول الله منادياً ينادى بمكة يوم الفتح « مَنْ أغمد سيفه فهو آمِن ، ومَن دخل المسجد فهو آمِن ، ومَن دخل دار أبى سفيان فهو آمِن » ، وهو شرف عظيم لم ينله أحد . وإذا كان رسول الله ﷺ قد رمى من ورائه إلى حقن الدماء وتآلف الصفوف وتوحيد الكلمة ، فقد رأى بنو أمية فى ذلك توطيدًا لشرفهم ، وتقديرًا من رسول الله ﷺ لرفيع مقامهم ، بحيث سوى بينهم وبين بنى هاشم أسرته ، فلما حصلت المشادة بينهم وبين على بن أبى طالب لم ير معاوية — وهو كبيرهم — عظيم أمر فى المطالبة بالخلافة والسعى لها ، خصوصاً أنه قد انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام .

والواقع أننا أمام ظاهرة خطيرة تتعلق بموقف بنى أمية من الخلافة عامة ، وموقف معاوية منها خاصة .

فقد ولى الصِّدِّيقُ يزيدَ بن أبى سفيان قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لغزو الشام ، وولاه الفاروق دمشق لما تم فتحها ، كما أثبت أخاه معاوية بعد وفاته على دمشق وما حولها ، فلما آل الأمر إلى عثمان بن عفان أطلق يده فى الشام كلها ، من مشرقها إلى مغربها ، وظل شأن معاوية فى تعاظم وتقدم حتى مقتل عثمان وقيام علىٍّ ، فاستقل معاوية بالشام ، وامتنع عن مبايعة على ، متهماً إيَّاه بالهوادَة فى أمر عثمان ، وإيوائه قتلته فى جيشه ، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة على ، فوقعت الحروب والفتن التى مزقت شمل المسلمين .

وبايع أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبى طالب أربعون ألفاً على الموت ، وأقسموا عليه أن يمضى بهم إلى عدوه ، فما يبرحون به حتى يقضى الله أمره ، ويصدق وعده ، فبينما هو يتحفز للسير بهم إلى الشام قُتل رضى الله عنه ، فبايع الناس ولده الحسن ، فبلغه مسير معاوية فى أهل الشام إليه ، فتجهز بجيشه وسار من الكوفة إلى لقاء معاوية ، فنزل المدائن ، وكان قيس بن سعد بن عبادة على مقدمته فى اثنى عشر ألفاً ، فنادى مُنَادٍ فى الجيش : أن قيس بن سعد قُتِلَ فانفروا ، فنفروا بسرادق الحسن فنهبوا متاعه ، حتى نازعوه بساطاً كان تحته ، فعلم عندئذ أن لا قِبَلَ له بمقاومة معاوية فى مثل هذا الجند المضطرب المتاقل المختلف ، فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شُورَى بين المسلمين يُوَلُّون عليهم مَنْ أَحبوا ، فتم لمعاوية ماكان يطمح له من سلطان الخلافة ، ودخل الكوفة فبايعه الناس (١) وكتب الحسن إلى قيس بن عبادة ــ وكان لايزال فى اثنى عشر ألفاً من جنده ــ يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ففعل بعد أن اشترط على معاوية الأمان له ولشيعة علىٍّ عَلَى ما أصابوا من دماء وأموال ، ورحل الحسن بعد ذلك إلى المدينة ولزم منزله فيها حتى قبضه الله إليه .

الحركات المعارضة :

لقد كانت الأمة الإسلامية فى هذا العهد تضطرب فى ثلاثة أحزاب :

شيعة بنى أمية ، من أهل الشام وغيرها من الأمصار ، وكان يدعى هؤلاء أن الخلافة فى قريش ، وبنو أمية أَوْلَى بها ، فَهُم سادة قريش فى الجاهلية ، وسادة فى الإسلام .

وشيعة علىٍّ بن أبى طالب ، وكانت تنزل العراق ، وأقلها فى بعض

(١) كان ذلك فى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ .

الأمصار الإسلامية ، وهذه كانت ترى فى الخلافة رأياً غير رأى بنى أمية ، وتذهب إلى أن عليًّا أحق بها من سواه ، وأن أولاده هم الخلفاء من بعده .

وكان الخوارج ثالث هذه الشيع ، وكانوا ينكرون مذهب الفريقين ، ولا يرون كبير أمر فى استحلال دمائهم ومقاتلتهم ، لخروجهم على الدين فى زعمهم ، وكانوا يعتقدون بأن الخلافة حَقٌّ لكل مسلم مادام كُفؤاً لها ، لافرق فى ذلك بين قُرشِيٍّ وغير قُرشى .

والواقع أن المتتبع لتاريخ الإسلام فى أول نشوء الدولة الإسلامية لا يستطيع أن ينكر ماكانت تضطرب به هذه الأحزاب من اختلاف فى حدود المذهب الذى يدعون الناس إليه ، وينادون بأنهم على حق فيه ، فالمعالم لم تكن واضحة ، ومناهج التفكير لم تكن سهلة المعالم واضحة المسالك ، ولعل هذا من الأسباب التى مكنت للفتنة وزادتها اشتعالا وقوة .

يقول نيكلسون : إن سياسة بنى أمية كانت ترمى إلى جعل الخلافة مُلْكاً كِسروِيًّا ، وليس أدل على ذلك من قول معاوية « أنا أول الملوك » (١) .

— ٢ —

وقد واجهت الدولة الأموية — على قصر مدة خلافتها — فِتَناً وثورات منذ قيامها حتى سقوطها سنة ١٣٢ هـ . وإذا كانت ثورات الشيعة والخوارج قد اتخذت طابعاً مميزًا كان له أثر كبير فى إضعاف الحكم الأموى ، فإننا يجب ألَّا نُغْفِلَ ماكان لعبد الله بن الزبير وخروجه على الأمويين بالحجاز وأَخْذَهُ البَيْعَة لنفسه فى بعض الولايات الإسلامية من أثرٍ فى تقلص نفوذ الأمويين فى الدولة العربية .

حركات الخوارج :

عُرف الخوارج بهذه التسمية لخروجهم على الخليفة الرابع على بن أبى طالب

(١) تاريخ اليعقوبى .

بعد أن كانوا من أتباعه بسبب قبوله التحكيم ، كما أطلقوا على أنفسهم اسم « الشُّرَاة » أى الذين شَرَوْا آخِرَتَهُم بِدُنْيَاهم ، وعُرفوا أيضا بِاسْم « المُحَكِّمَة » أى الذين يقولون لاحُكْمَ إلَّا لله .

واجه معاوية بن أبى سفيان مُعارضة قوية منهم لاعتقادهم أنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وعملوا على مناوأة سلطته فى كلٍّ من الكوفة والبصرة ، فوجه إليهم زياد ابن أبيه والى العراق ، فعمل على مطاردتهم . ولما ولى ابنه عبيد الله البصرة ظل يتعقبهم حتى قضى على كثير منهم ، وبعد وفاة معاوية ثاروا فى وجه يزيد ، لأنه فى رأيهم لم يتولَّ الخلافة بالانتخاب ، وحاولوا الانضمام لعبد الله بن الزبير فى مكة ، ولما وجدوا أنه على خلاف رأيهم خرجوا من مكة ، وانقسموا قسمين : فريق اتجه إلى البصرة ، وفيهم نافع بن الأزرق الحنفى ، وقد عُرِفَ أتباعه بِالأَزَارِقَة ، وفريق اتجه إلى اليمامة حيث ولوا عليهم نَجْدَة بن عامر الحنفى ، وهؤلاء عرفوا بالنَّجْدَات .

اشتد خطر الأزارقة من الخوارج فى البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فوقع اختيار أهل البصرة على المُهَلَّبِ بن أبى صُفرة لمحاربتهم لما عُرِفَ عنه من الشجاعة وحُسن الرأى ، فنهض لقتال الخوارج فى عشرين ألفاً من قبيلة الأزد وأهل البصرة ، فمضى ناحية المشرق يتبعهم حتى انتصر عليهم انتصارًا حاسماً سنة ٦٦ هـ انتهى بمقتل زعيمهم . على أن الخوارج مالبثوا أن استعادوا قوتهم بقيادة قَطَرِىٌّ بن الفُجَاءة ، فواصلوا زحفهم فى اتجاه البصرة حتى أصبحوا يهددون المدينة نفسها ، وعاد المُهَلَّب بن أبى صُفرة إلى محاربتهم ، تنفيذًا لرغبة عبد الملك بن مروان ، الذى طلب من أخيه بشر — بعد أن أسند إليه ولاية البصرة — أن يمد المُهَلَّب بجيش من أهالى هذه المدينة ، واستطاع المُهلب بمعاونة الأمداد التى وصلت إليه من العراق فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى أن يطرد الأزارقة الذين يقودهم قَطَرِىُّ بنُ الفُجَاءَةِ من فارس ، ولم يزل يتعقبهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة .

هدأت حركة الخوارج فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، واستطاع عمر بن عبد العزيز بما عُرف عنه من ميل إلى المسالمة إلى الاستماع إلى آرائهم وإقناعهم بحرصه على التزام جادة الصواب .

ولم يزل الخوارج يثورون بالأمويين كلما أُتيحت لهم الفرصة حتى اشتدت وطأتهم فى أواخر عهد بنى أمية ، فقاموا بِعِدَّة ثورات فى الكوفة ، وبعض مدن الحجاز ، واليمن ، فحاربهم مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، ولم يشغله تفكك عُرى دولته عن تعقب حركاتهم ، والعمل على إخمادها .

كان معظم الخوارج إلى ذلك الوقت من قبائل بكر وتميم ، ومن القبائل التى تنزل شرق بلاد العرب ، وكانوا يقولون : إن المسلمين سواء ، وإنه لافضلَ لأحدٍ على الآخر إلا بالتقوى ، وإن الإمامة حق لكل مسلم يتصف بالصفات الحَسَنة . وهكذا خالف الخوارج نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة فى بيت النبى ﷺ ، وقصرها على على بن أبى طالب وآل بيته . كما خالفوا أهل السنة القائلين بأن الخلافة فى قريش .

حركات الشيعة :

منذ مقتل عثمان ابتدأت تظهر نواة حزب جديد يُناصر عليًّا ، اقتصرت دعوته فى بادىء الأمر على أحقية على فى الخلافة ، ثم ضعف شأن شيعة علىٍّ فى العراق بعد مقتله ، لكنهم مع ذلك جاهروا بتذمرهم من الصلح الذى عقده الحسن مع معاوية ونزل بمقتضاه عن حقه فى الخلافة ، وازداد حنقهم على معاوية حين أقر سَبَّ علىٍّ بن أبى طالب على المنابر ، وبخاصة فى الكوفة .

اشتدت معارضة الشيعة للأمويين منذ ولى الحسين بن على رياسة الشيعة بعد وفاة أخية الحسن سنة ٥١ هـ . وكان يرى أنه أحق المرشحين بالخلافة ، إذْ أصبح الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ، فلما ولى يزيد بن معاوية

امتنع الحسين عن مبايعته ــ وكان إذ ذاك فى المدينة ــ فخرج منها قاصدًا مكة ومعه نساؤه وأهل بيته ، وفى مكة تلقى رسائل من أهل الكوفة يدعونه فيها للقدوم عليهم ليتعرف حقيقة نواياهم ، لكن عبيد الله بن زياد والى العراق أخذ يتعقب أخبار مسلم بن عقيل حتى قتله .

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين ــ حين كثر مبايعوه من أهل الكوفة ــ يدعوه للمسير إليه ، فخرج الحسين من مكة إلى الكوفة يريد اللحاق به ، ولم يكن يعلم بما جرى له ، ولم يكد يعلم عبيد الله بن زياد باقتراب الحسين من الكوفة حتى أرسل قوة لمنعه ، وتصدى له عمر بن سعد ابن أبى وقاص ، وانتهى الأمر بقتل الحسين وأتباعه بمَكانٍ يُقال له : « كَرْبَلاء » فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، ولم ينج من هذه المعركة إلا خمسة هم ابنه على زين العابدين ، وكان مريضاً فلم يحضر المعركة ، وأخته السيدة زينب (رضى الله عنها) وابنه عمر أيضاً ، وابنتاه فاطمة وسكينة .

كانت حادثة كربلاء سيئة الأثر على المسلمين ، فقد ترتب عليها ظهور شعور عدائى فى العراق وفارس ضد بنى أمية ، استغله أحفاد العباس بن عبد المطلب عم الرسول فى العمل على تقويض دعائم الخلافة الأموية .

رأى الشيعة بالكوفة بعد مقتل الحسين أنهم بحاجة لتنظيم أنفسهم ، فاجتمع نفر منهم وتذاكروا دعوتهم للحسين وعدم إغاثتهم له حتى قتل بالقرب منهم فى كربلاء ، وتزعمهم رجل يدعى سُليمان بن صُرَدٍ الخُزاعى ، وظلت حركة هؤلاء النفر من الشيعة سرية حتى توفى يزيد بن معاوية ، فأخذوا فى إظهار دعوتهم ، فساروا ذات ليلة إلى قبر الحسين ، وهناك أقاموا يوماً وليلة وصاحوا طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين ، ولذلك عُرِفُوا فى التاريخ بالتَّوَّابِين ، ثم ساروا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد حيث التقوا بجيش الشام ، فدارت بين الفريقين معركة فى عين الوردة ، من أرض الجزيرة سنة

٦٥ ﻫ انتهت بهزيمة الشيعة ، وقتل زعيمهم سُليمان بن صُرد وعدد غير قليل منهم ، ثم رحلت فلولهم إلى الكوفة ، حيث ظلوا مقيمين بها إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة المُختار بن أبى عُبيد الثَّقَفِىّ .

اتفق رأى التَّوَّابِين بعد عودتهم من الكوفة على أن يكون المُختار زعيماً لهم ، فأخذ يحرضهم على النهوض للأخذ بثأر الحسين ، فانضم إليه بعض العرب وعدد كبير من الموالى — وكان أغلبهم من القُرى — كما أخذ البيعة لنفسه من أهالى الكوفة ، وشرع ينتقم من قتلة الحسين ، فأعد جيشاً بقيادة إبراهيم بن مالك بن الأشتر لمحاربة عبيد الله بن زياد — وهو يومئذ بالموصل — مع فريق كبير من جيش الشام ، فلما التقى الجيشان على باب الموصل انهزم جيش الشام وقُتل عبيد الله بن زياد وكثير من كبار رجال الدولة الأموية . وبذلك أخذ المختار ثأر الحسين كاملا .

اتخذت الحركة التى قام بها المختار فى الكوفة صفة دينية بجانب مظهرها السياسى ، على إثر انضواء الشيعة تحت زعامته وانضمام الموالى إليه ، فكون المختار فرقة شيعية من أتباعه تُعرف بالمخُتارية أو الكَيْسَانِيَّة ، نسبة إلى كَيْسَان ، رئيس حرس المختار .

هدأت حركة الشيعة فى عهد الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الذى منع سَبَّ علىٍّ بن أبى طالب على المنابر ، وجعل مكانه قوله تعالى : **﴿ إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وَإيتاءِ ذى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والْبَغْيِ ، يِعَظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾** .

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك خرج عليه زيد بن على زين العابدين (ابن الحسين بن على) . وكان يرى أنه أهل للخلافة ، وقد حرضه أهل الكوفة على القيام فى وجه هشام ، على الرغم من أن بعض أقاربه حذروه من وعودهم . ولما تكاثر عدد أنصار زيد بالكوفة دعاهم للخروج فلم

يستجب له سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ، ثم اشتبك مع جند الشام فى عدة معارك انتهب بهزيمته وقتل سنة ١٢٢ هـ .

حركة عبد الله بن الزبير فى الحجاز :

شرع يزيد بن معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة سنة ٦٠ هـ فى أخذ البيعة من زعماء الحجاز — وكانوا إذ ذاك من مُعارضى الحكم الأموى — فبعث إلى واليه على المدينة الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان يأمره بأن يأخذ البيعة من الحُسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . لكن هذا الوالى لم يعمد إلى تنفيذ أوامر يزيد بالسرعة المطلوبة ، وبذلك أتاح لكل من الحسين بن على وعبد الله بن الزبير فرصة الخروج إلى مكة .

ولما غادر الحسين بن على مكة قاصدًا الكوفة ، خلا الجو لعبد الله بن الزبير فى مكة فظل مقيمًا بها حتى بلغه مَقْتَلُ الحُسين ، فأظهر ماكان يخفيه ، وأخذ البيعة من أصحابه بمكة .

كذلك اشتد السخط فى المدينة المنورة على خلافة يزيد ، فأعلنوا خلعه وولوا على أنفسهم عبد الله بن حنظلة ، وهكذا أصبح المُبَايَعُونَ بالخلافة ثلاثة : يزيد بن معاوية فى دمشق ، وعبد الله بن الزبير فى مكة ، وعبدالله بن حنظلة فى المدينة .

لم ير يزيد إزاء موقف أهل المدينة العدائى من خلافته بُدًّا من أن يلجأ إلى الشدة ، فأرسل إلى المدينة جيشاً من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّى ، دارت بينه وبين أهل المدينة معركة هائلة عند جهة الحَرَّة — وهى موضع بظاهر المدينة — أسفرت عن هزيمتهم .

ولما فرغ مسلم بن عقبة المرى من المدينة ، وأخذ البيعة من كبار أهلها ليزيد أراد الخروج إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير ، الذى كان إذ ذاك قد أخذ

البيعة لنفسه بالخلافة ،لكن مسلم بن عُقبة توفى فى الطريق فخلفه الحُصَيْنُ بن نُمَيْر الذى سار على رأس الجيش الأموى حتى بلغ مكة وأحاطها بجيشه . أمّا أصحاب عبد الله فتحصنوا فى البيت الحرام ، وبينما القتال دائر بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فوقفت الحرب بين الفريقين .

لم تقتصر دعوة عبد الله بن الزبير على بلاد الحجاز ، بل انتشرت فى بعض أمصار العراق ، والشام ، ومصر ، فلما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤ هـ ، زحف إلى مصر واستردَّها من عامل ابن الزبير ، ثم أعد حملتين ، وجه إحداهما إلى الحجاز ، والأخرى إلى العراق ، فَهُزمت حملة الحجاز ولم تَقُمْ حملة العراق بشيء يذكر فى حياة مروان ، لأن الموت عاجله سنة ٦٥ هـ .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، وجه اهتمامه إلى القضاء على نفوذ ابن الزبير فى كل من بلاد العراق والحجاز ، فتغلب أولا على أخيه مصعب بالكوفة ، وعهد إلى الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفِى بالمسير إلى مكة على رأس حملة من جند الشام لإخماد حركة عبد الله بن الزبير ، فلما دخلها فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ ، شرع فى حصارها ، ونصب المجانيق على جبال أبى قُبَيس ورمى الكعبة بها ، وكان عبد الله بن الزبير وأصحابه معتصمين ببيت الله الحرام .

واستمر الحصار ستة أشهر حتى تجرع أهل مكة أَلَمَ الجوع ، واضطر كثير من أنصار ابن الزبير إلى الانفضاض من حوله ، لكنه برغم ذلك ظل يقاتل الجيش الأموى حتى قُتل فى جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ . وأخذ الحجاج البيعة من أهل مكة لعبد الملك بن مروان . ثم أُسندت إليه ولاية الحجاز .

مصر تحت الحكم الإسلامى :

كان الوالى فى مصر عمرو بن العاص ، ولم يزل والياً عليها حتى تُوفى سنة ٤٣ هـ ، فولى معاوية بدله ابنه ، ثم عزله وولى غيره .

وكانت الفسطاط فى مقدمة المدن الإسلامية التى ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية ، وَاخْتُطَّتْ عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لُهَيْعَة (٩٦ — ١٦٠ هـ) وهو من أكبر المصادر الذين يُرْوَى عنهم كثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يُقْرَنُونَ بمالك وأبى حنيفة ، لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعى ودَرَّسَ فيها ، ووضع مذهبه الجديد . ومن علمائها كذلك نافع المتوفى عام ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء : جميل ، وكُثَيِّر ، ونصيب ، وابن قيس الرقيات ، وأيمن ابن خُزيم ، وأقام فيها أبو العيال الهُذَلى المتوفى عام ٤٦هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر فى ظلال الحكم الإسلامى (عام ٢٠ هـ — ٦٤٠ م) بفضل عمرو بن العاص (٤٧ ق هـ — ٤٣ هـ : ٦٦٣ م) ، وقد فرغ ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص (٣٦ ق هـ — ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير ، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصرَ أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم وَلِيَا الحكم مرتين ، وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائباً عن ابن الزبير ، ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان من هؤلاء من بيت بنى أمية : عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) ، وعبد الله بن عبد الملك الذى وليها (عام ٨٦ هـ — ٧٠٥ م) ، وقد أصدر (عام ٨٦ هـ) أمرًا باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تَعَلُّم العربية ،

وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجاً . وفى عام ٨٦ هـ حُولت دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، الذى ولى مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى قبل عام ١٠٩ هـ .

الشام موطن الخلافة :

كانت دمشق عاصمة الأمويين ، ومنارة العلم والثقافة والأدب ، ومَقْصد الناس من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو حرصاً على مال الخلفاء والأمراء . وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقى .

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيى الشام ، وتوفى عام ٨٩ هـ . ويقول الجاحظ فيه : كان خطيباً ، شاعرًا ، كثير الأدب ، حكيماً ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقَرَّبَ أهل الحكمة ، وترجم كتب النجوم والطب ، والكيمياء ، والحروب ، والآداب ، والآلات ، والصناعات [1] .

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو . وكان عدى بن الرقاع يعيش فى الشام .

وكان فى الشام : مُعاذ وعُبادة بن الصَّامِت وأبو الدَّرْدَاء ، وعمر بن عبد العزيز ، والأَوْزَاعى ، ورجاء بن حَيْوَةَ وسواهم .

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامى ، بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية .

---

(١) ٩٣ رسائل الجاحظ للسندوبى .

الفصل الثاني

بدايات الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي

منذ تولى معاوية الخلافة بدأ يتجه إلى الفتوحات الإسلامية لحماية أمن الخلافة وحدودها .

وليس فى عهد معاوية ما يستلفت النظر من بَسْط الفتوح وكثرة الزحوف ، إلَّا ما كان من محاولة العرب اقتحام القسطنطينية واحتلال قبرص ورودس من جزر البحر المتوسط .

وأما فى الشرق فلم يكن على حدود فارس إلا فتوح قليلة ، وإرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة . وقد غزا عبد الله بن سوار العبدى ، الذى كان أميرًا على ثغر (السِّنْدِ) القيقان (١) مرتين ، وفى المرة الثانية استعان القيقان ببعض أنصارهم فقتلوه ، وغزا المهلب بن أبى صفرة الأزدى ثغر السند فوصل إلى لاهور (٢) . وهما بين « الملتان » و « كابل » فلقيه العدو وقاتله ، ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه ، فقتلوا جميعاً .

والواقع أن همة المسلمين كانت موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم أكثر منها نحو غيرهما من الجهات ، وكان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان ، أحدهما قسطنطين الثانى بن هرقل الثانى الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ ، وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ، وكان الروم يغيرون على البلاد الإسلامية فى كل فترة وأخرى لما بينهما من الجوار ، فرتب معاوية الغزو إليها برًّا وبحرًا ، أما البحر فكانت الأساطيل فى زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها ، وساعده على ذلك كثرة الغابات

---

(١) من بلاد الهند مما يلى خراسان .

(٢) مدينة بكابل من بلاد الأفغان ، وهى الآن فى إقليم باكستان .

بجبال لبنان ، حتى بلغت أساطيله ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العَدد والعُدد ، وصار يسيرها فى البحر فترجع غانمة ، وافتتح بها عدة جهات ، منها جزيرة قبرص ، وبعض جزائر اليونان ، وجزيرة رودس ، افتتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم ، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم ، وكان معاوية يكثر لهم العطاء ، وكان العدو قد خافهم .

وأما فى البر فرتب الشواتى والصوائف (١) .

وكان العرب منذ فتحوا الشام يفكرون فى فتح القسطنطينية ، لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، ولو فتحها المسلمون أول عهدهم بالفتوح والتوسع ، لغلبوا على شمال أوربا بدون شك ولا ريب ، ولتبدَّل وجه التاريخ ، ولكنَّ المسلمين لم يفكروا فى القسطنطينية إلا سنة ٦٥٣ ميلادية ، فى أيام عثمان ابن عفان ، فجهزوا أسطولاً عظيماً فى ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسر ابن أبى أرطأة ، وأرسلوه فى البحر يمخر عبابه نحو عاصمة الرومان ، فتلاقى الأسطول العربى بأسطول الروم فهزمه وشتته ، وكان هذا فى أيام ولاية معاوية على الشام ، إلا أن الأسطول العربى فى هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية .

وفى سنة ٤٤ للهجرة ـــ ٦٦٤ ميلادية ـــ فى خلافة معاوية ، غزا الأسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أبى أرطأة أيضاً ، ووصل إليها وفقاً لرواية الطبرى ، ثم إن فضالة بن عبيد غزا خليقدونية ـــ ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى ـــ حيث وافاه يزيد بن معاوية (٢) .

---

(١) الشواتى : جمع شاتية وهى الجيش الذى يغزو فى الشتاء .
والصوائف : جمع صائفة وهى الجيش الذى يغزو فى الصيف .

(٢) جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزوة سنة ٦٦٦ ميلادية ، وذهب غيره إلى أن السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة ، أو ٦٧٢ ميلادية .

ويقول مؤرخو العرب : إن معاوية جهز فى سنة ٤٨ جيشاً لغزو القسطنطينية برًّا وبحرًا ، وكان على الجيش سفيان بن عوف ، وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم ، وكان فى هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم .

ومشى هذا الجيش نحو عاصمة البيزنطيين مخترقاً طريق الأناضول ، حتى وصل قبالتها ، وكان بسر بن أبى أرطأة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهر نيسان وأيلول ، ولم يتمكنوا من فتحها ، فلما جاء الشتاء انكمشوا إلى جهة (فيزقيا) فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى .

وفى الربيع عادوا إلى حصار العاصمة ، ويقال إنهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية إلا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل فى فشلهم النار الإغريقية التى أحرقت جانباً من الأسطول ، كما أنه غرق جانب آخر منه أثناء رجوعهم .

ومن المرجح أن الجيش العربى الذى جاء من البر بدأ الحصار سنة ٦٦٧ ، وأن الأسطول العربى أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ، وبعض مؤرخى العرب يهملون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمد ذلك إلى سنة ٥٥ .

وفى أيام الحصار توفى أبو أيوب الأنصارى خالد بن يزيد ، وهو الذى نزل عليه رسول الله ﷺ ، بالمدينة يوم الهجرة ، وقد دفن خارج المدينة ، قريباً من سور القسطنطينية ، ولا يزال قبره بها يُزار للآن وعليه مسجد ، كان يتوج فيه خلفاء آل عثمان .

ومن الفتوح العظيمة ماكان فى إفريقية سنة ٥٠ ، فقد وَلَّى معاوية عقبة بن

نافع ، وكان مقيماً ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سَيَّرَ إليه عشرة آلاف جندى ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد عنهم الأمير نكثوا وارتدَّ مَنْ أسلم ، ثم ارتأى أن يتخذ مدينة يكون فيها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وأمر ببناء المدينة فبُنيت ، وبنى المسجد الجامع ، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وتم أمرها سنة ٥٥ للهجرة ، وسكنها الناس ، وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا ، فدخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وأَمِنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها .

المـــرَدَة فـى لبنـــان

دفعت بيزنطة ثمناً بالغاً لتساهلها فى تحصين الحدود السورية ـــ كما يقول مؤرخو الفرنجة ـــ فلما وفق العرب إلى إخضاع سورية وأخذوا يقتحمون الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى ، رأت بيزنطة نظرًا لصعوبة تحصين حدودها أن تؤلف فرقاً متحركة تنقضُّ على جنود الإسلام فى مختلف الجهات ، وتثيرها عليهم حرب عصابات بحيث تقل من حِدَّتِهم ، وتفضى إلى قوادهم بضرورة القبول للأمر الواقع ، وعدم مهاجمة الحدود الرومانية لتتمكن بيزنطة من تنظيم شئونها وتجديد سلاحها ، بعد الانكسارات التى ألمت بها فى ميادين اليرموك وأجنادين وفلسطين ومصر .

وقد ذهب ابن خلدون فى مقدمته إلى القول بأن العرب لم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم إلا فى الأرض السهلة ، وأما فى أعالى الجبال فإن نفوذهم كان ضعيفاً ، بحيث كان سكان الجبال فى أيام الخلفاء ينعمون بكثير من استقلالهم وحرياتهم ، لا تعرض لهم الحاميات العربية بكثير ولا قليل .

والواقع أن الزحف العربى وقف فى أنطاكية من جهة الشمال ، ولم يوفق إلى اقتحام جبال طوروس التى ظلت فى مدة الخلفاء الأمويين الحد الطبيعى بين سوريا الإسلامية وآسيا الصغرى اليونانية .

وكان يعيش فى بقعة من هذا الجبل جماعة ينعمون برغبة أكيدة فى السلب والغزو (١) ، كما يحبون المحافظة على استقلالهم وحرياتهم ، بحيث اضطرت روما

(١) ميشال السورى ج ٢ ص ٤٥٥ .

نفسها إلى احترام هذه الرغبة الاستقلالية فلم تعرض لهذه الجماعة ببطش ولانكر ، خصوصاً وقد كان من الصعب عليها أن تفرض إرادتها عليهم بالقوة والسيف ، وهو ما أبت روما التوسل به ، واكتفت بقبول المردة (١) — وهو اسم هذه الجماعة — بالخضوع ولو بالاسم إلى الإمبراطور ، وظل هذا شأنهم حتى عهد الإمبراطورية البيزنطية ، فاحترمت هذه بدورها استقلالهم ، واكتفت بأن تأخذ منهم بعض الجنود والمتطوعة .

فلما كانت الفتوحات العربية ، وتراجع هرقل فاشلاً منكسرًا إلى القسطنطينية ، وأخذ العرب يهددون آسيا الصغرى بعد أن احتلوا أنطاكية ، رأى المَرَدة أو الجراجمة أن يصالحوا العرب ، اكتساباً لعطفهم ، ووقع الصلح حتماً ، وكلف العرب الجراجمة بأن يكونوا حراساً لجبال طوروس مع فصائل من الجيش العربى ، ويكون لهم الحق حين يشاركون القوات الإسلامية فى الحرب والغزو ، بالاستفادة من غنائم الحرب .

ومن المؤكد أن الجراجمة أو المردة فى هذا الحين كانوا بدوًا على الفِطرة ، لايعرفون من ألوان الحياة إلا الغزو والحرب ، وما وراء الغزو والحرب من مال وغنائم ، وهو ما حمل بعض مؤرخى المسيحية على انتقادهم والنقمة عليهم ، لتأييدهم الإسلام فى حروبه ضد الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية المسيحية ، ولكن الجراجمة لم يكونوا أرثوذكساً ، بل كانوا من الكاثوليك على ما يظهر لنا ، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن حفدتهم هم الموارنة التابعون لروما العظمى .

ولم يخلص الجراجمة للمسلمين كل الإخلاص ، فقد كانوا يساعدونهم حيناً ، وينقضُّونَ عليهم حيناً آخر ، مساوقين بيزنطة فى سياستها الملتوية المضطربة (٢) .

---

(١) وكان العرب يسمونهم الجراجمة نسبة إلى بلدة (جرجوما) التى كانوا يسكنونها ، وكانت أكبر مدنهم .

(٢) البلاذرى : تقويم البلدان .

فلما قام العرب بمهاجمة القسطنطينية برًّا وبحرًا رأت بيزنطة من حُسن السياسة أن تؤلب الجراجمة على العرب ، وتدفعهم إلى غزو الحدود الإسلامية ، بحيث تشغل العرب ولو قليلاً عنها ، وبحيث يكون بطوقها أن تعزز سلاحها ، وترتب أمورها ، وقد تمكن الإمبراطور قسطنطين الرابع ـــ حوالى سنة ٦٦٦ ميلادية ـــ من اكتساب عطف الجراجمة ، فاستمالهم إليه بشتى الوعود ، كما أمدهم ببعض الفرق البيزنطية ، وأمرهم بمهاجمة السواحل الإسلامية ، فصدعوا بالأمر ، وتمكنوا من الوصول إلى جبال لبنان بعد أن اقتحموا أكثر سواحل سورية الممتدة من جبال طوروس إلى فلسطين .

وكان معاوية أمام هذا الموقف بين عاملين : الأول مهاجمة الجراجمة وإجلاؤهم عن المدن التى احتلوها ، حتى لا يكون بطوقهم التمكن فى السواحل وقطع الصلة بين دمشق والإمبراطورية الإسلامية وراء البحار ، والعامل الثانى الاتفاق مع بيزنطة على وقف هذه الغزوات ، ثم مهاجمة الجراجمة وتمزيقهم .

والظاهر أن معاوية فضل الرأى الثانى ، واتفق مع بيزنطة على مال يؤديه إليها ، وهدايا يقدمها لإمبراطورها ، بشرط ألّا تؤيد هذه الجراجمة ، وأن تتنكر لهم ، ورضيت بيزنطة بهذا الاتفاق ، إذ مكنها ـــ على مانعتقد ـــ من الاطمئنان إلى سلامة حدودها ولو مؤقتاً ، وقام معاوية فى نفس الوقت بمهاجمة الجراجمة أو المردة فى لبنان ، والإمعان فيهم قتلاً وتشتيتاً ، بحيث لم يبق منهم إلا أقلية ضئيلة ظلت معتصمة فى الجبل حتى أيام عبد الملك بن مروان (١) .

وظل الجراجمة يثيرون المتاعب والقلاقل حتى اضطر عبد الملك بن مروان أن يدفع للجراجمة أموالاً كما كان يدفع للروم حين اضطر أن يداريهم وهو مشغول

(١) تقول المصادر اليونانية إنَّ الاتفاق الذى صار بين معاوية والإمبراطور كان يقوم على عدة بنود منها : أن يؤدى معاوية إلى الإمبراطور ثلاثة آلاف قطعة ذهبية فى السنة ، وأن يطلق سراح ثمانية آلاف أسير ، وأن يرسل له خمسين جوادًا من أحسن الخيول العربية .

بالقضاء على الفتن الأهلية ، وكان إمبراطور الروم يرسل جماعات منهم إلى الشام لإثارة الفتن والقلاقل ، وليكونوا عيناً له ضد العرب ، واضطر عبد الملك أن يعمل ما عمله معاوية ، وذلك بإرسال جماعات من العراق وفارس إلى سواحل الشام لإسكانهم بين الجراجمة ، وذلك كى تخف سطوتهم ودسائسهم . ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك نقل إلى أنطاكية قوماً من زط السند الذين أرسلهم محمد بن القاسم من السند إلى الحَجاج ، فبعث بهم الحجاج إلى الشام .

واستطاع الوليد بن عبد الملك أن يقضى نهائيًّا على خطر المردة ، إذ هاجم مسلمة بن عبد الملك الجراجمة فى عقر دارهم ، ودمر عاصمتهم جرجوما ، فمات بعضهم ، وهاجر البعض إلى الأناضول ، وانضمت جماعة منهم إلى جيش الشام وقاتلوا تحت لواء الإسلام ، وساهموا فى عهد يزيد بن عبد الملك فى إخضاع الفتن التى نشبت فى العراق .

وهكذا ، ومنذ أن بدأ معاوية بن أبى سفيان سُنة الجهاد ضد الروم ونحن نرى أن الغزو أصبح نظاماً مطردًا ، وأنه قلما نجد سنة لا يغزو فيها العرب أرض الروم ، وكان هذا الغزو يقع فى الصيف ، ويقال له الصائفة ، ويقع فى الربيع ويقال له الربيعية ، وكانت الصائفة أطول من الربيعية . أما غزو الشتاء فكان يحدث نادرًا جدًّا ، لأن البرد والثلوج كانا يعوقان حركة الجند ، وإذا كان لابد من غزو الشتاء أو « الشاتية » فإنها تكون قصيرة جدًّا لاتتجاوز عشرين يوماً ، وكان يطلق أحياناً اسم الشاتية على الغزوة الربيعية .

وكان نتيجة الصوائف والشواتى أن حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة فى شمال العراق تحصيناً منيعاً ، وأُقيم هناك خطّان دفاعيان ، أحدهما أمامى يُطلق عليه خط الثُّغور ، والآخر خلفى يُطلق عليه اسم العواصم .

أما الثغور فهى خط الحصون الخارجى الشمالى ، والثغر هنا مايلى أرض العدو من أرض العرب ، أى الثغرة التى يدخل منها العدو إلى أرض العرب . وكان خط الثغور ينقسم قسمين : ثغور الشام ، أى الأماكن الحصينة التى تحمى الشام من عدوان الروم ، وثغور الجزيرة ، أى ثغور الإقليم الواقع شمالى دجلة والفرات .

ومن أهم الثغور الشامية مدينة طرسوس الواقعة جنوبى آسيا الصغرى ، بالقرب من ساحل البحر المتوسط . وقد هيمنت طرسوس على مركز الهجوم على مدخل بلاد الروم الجنوبى الشهير بأبواب قليقية ، وهو ممر فى جبل طوروس ، فجعلها العرب قاعدة حربية شنوا منها الحملات على مناطق الروم .

ومن الثغور المهمة أيضاً أدنة (أطنة) والمصيصة (موبسوستيا) .

ومن الثغور الجزرية شمشاط وملطية ومرعش (جرمانيقية) والحدث وزبطرة .

أما خط العواصم فكان يلى خط الثغور ، أى يعصم الدولة العربية من الأعداء ، وكان أهم بلدانه حلب ومنبج .

والواقع أنه كان هناك حاجز طبيعى منيع يساعد على الفصل شبه التام بين دولة العرب ودولة الروم ، وهو جبال طوروس التى تتكون من سلسلتين متوازيتين من الجبال : سلسلة جبال طوروس ، وسلسلة جبال طوروس الداخلية التى تواجه الحدود العربية ، والتى كان العرب يسمونها جبل اللكام . وكان العرب ينفذون من جبل اللكام من ممرات جبلية ، أو من دروب على حد تعبير العرب ، منها درب الحدث ، ودرب السلامة بالقرب من طرسوس وكان أكثر ارتياداً من الطريق الآخر .

وقد دأب الوليد بن عبد الملك على محاربة الروم كل سنة تقريباً ، وكان بطل حرب الروم أخوه مسلمة بن عبد الملك وأبناء الوليد ، ففى سنة ٨٨ هـ

(٧٠٧ م) غزا العرب الصائفة بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخ الخليفة ، والعباس بن الوليد ابن الخليفة ، وفتحوا حصن الطوانة ، وكان هذا الحصن من أعظم حصون الروم فى آسيا الصغرى فى بلادْ القباذق (كبدوكية) وفى سنة ٨٩ هـ غزا مسلمة أرض الروم ومعه العباس بن الوليد ، أما مسلمة فإنه افتتح حصن سورية [١] كما قصد عمورية وهزم الروم هناك ، وافتتح هرقلة وقمودية ، أما العباس بن الوليد فإنه افتتح أذرولية (درولية — درويليوم) كذلك غزا العباس الصائفة من ناحية البدندون (البذندون) . وفى سنة ٩٠ هـ غزا مسلمة أرض الروم ففتح الحصون الخمسة التى بسورية ، كما بلغ العباس بن الوليد الأرزن . وتوالت غزوات مسلمة بن عبد الملك فى أرض الروم فى السنوات التالية فغزاها فى سنة ٩١ هـ وسنة ٩٢ هـ وسنة ٩٣ هـ . واستطاع مسلمة أن يفتتح حصوناً كثيرة من أرض الروم فى الأناضول ، مثل حصن الحديد ، وسوسنة ، وغزالة ، وبرجمة ، واشترك مروان بن الوليد وعمر بن الوليد فى الغزوتين الأخيرتين . وفى سنة ٩٤ هـ غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، وقيل إنه فتح أنطاكية ، كما غزا عبد العزيز بن الوليد أرض الروم حتى بلغ غزالة . ويذكر الطبرى أن يزيد بن أبى كبشة وصل أرض سورية [٢] فى هذه الغزوة .

كذلك غزا العباس بن الوليد أرض الروم فى سنة ٩٥ هـ ففتح الله على يديه ثلاثة حصون وهى : طولس ، والمرزبانين ، وهرقلة . ثم غزا بشر بن الوليد الشاتية فى سنة ٩٦ هـ فقفل وقد مات الخليفة الوليد بن عبد الملك . وجدير بالذكر أن الوليد بن عبد الملك أخذ يعد حملة برية بحرية لغزو القسطنطينية ، لكنه مات قبل أن ينفذ المشروع .

---

(١) يورد الطبرى ج ٨ ص ٦٧ — ٦٨ اسم سورية وحصونها على أنها منطقة من أرض الروم جنوب آسيا الصغرى ، وفى أقصى شمالى الشام ، وعلى أنها كانت تابعة للروم حتى غزاها العرب زمن الوليد .

(٢) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٩١ .

الفصل الثالث

التوسع البحري في عهد الأمويين

— ١ —

الأسطول العربى فى شرق البحر المتوسط

كان اتجاه الأسطول العربى إلى مياه القسطنطينية ، واشتراكه مع القوات العربية زمن الأمويين فى حصار القسطنطينية ، بداية مرحلة جديدة تحمل طابع التوسع البحرى ، ذلك أن أعمال الأسطول العربى السالفة من فتح قبرص ورودس ، أو وقعة ذات الصوارى ، تعتبر جزءًا من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامة شواطئهم على البحر المتوسط ، غير أن وقعة ذات الصوارى جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها فى البحر المتوسط ، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل فى سيادة ذلك البحر ، وانتزاعه نهائيًّا من قبضة الروم .

وكان معاوية هو صاحب الفضل مرة أخرى فى دفع العرب نحو التوسع البحرى ، فكما جاهد فى سبيل بناء أسطول عربى فى البحر المتوسط فإنه عمد إلى دفع العرب إلى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم نفسها . ولم يكن معاوية بالشخص الذى يرتجل أعماله ، وإنما يقدم على مشاريعه عن روية وتمحيص ، فما كاد يستتب له الأمر بعد النزاع الداخلى الذى نشب بينه وبين على بن أبى طالب ، وما كاد يصبح خليفة للدولة الأموية ، حتى أخذ يعد الأسطول العربى لمساعدة قواته البرية فى الاستيلاء على القسطنطينية .

وجاءت سياسة معاوية البحرية الجديدة عنواناً على فهمه التام لأوضاع البحر المتوسط ، إذ أدرك بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر المتوسط الشرقى ، تغذيها بالقوات والإمداد ، وتشجع أهاليها على شن الغارت

على سواحل العرب بالشام ومصر . وقوّى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته المتكررة على جزيرة قبرص ، ودأب الروم على اتخاذ تلك الجزيرة شوكة تخز فى جنب البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط .

واستهل معاوية سياسته البحرية التوسعية بتقوية الثغور البحرية فى كل من الشام ومصر ، وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ، ثم بث النشاط فى دور الصناعة بكل من مصر والشام ، كذلك لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد ، وفى نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التى خصصت للتعاون مع القوات البحرية العربية فى الهجوم على القسطنطينية .

وتعتبر حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية فى بناء سياسة بحرية جديدة لم يعرفها التاريخ على نطاق واسع إلا فى الحرب العالمية الأخيرة ، وقوامها خلق تعاون قوى ، وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية فى الهجوم والغزو . ويرجع السبب فى اتخاذ العرب تلك السياسة الجديدة إلى إغارات سكان جبل اللكام القريبين من حدود آسيا الصغرى التابعة للروم على أراضى الشام .

وكانت طبيعة جبل اللكام تساعد سكانه ــ وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم المردة بسبب خروجهم دائماً على النظام وتمردهم ــ على تنفيذ خططهم العدوانية بدون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان ، وأفادوا من موقعها الجغرافى وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد فى حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة فى هذه السلسلة الجبلية ، ولذا هدف الروم باتخاذ

المردة عضدًا لهم ، ودفعهم إلى الإغارة على جبال لبنان سبيلاً لشل التعاون بين أساطيل المسلمين فى القواعد البحرية وبين الجنود البرية فى الداخل .

وظهر تعاون المردة مع الروم فى تعطيل جهود المسلمين البحرية سنة ٤٧ هـ ـــ ٦٦٦ م ، أى قبل عامين من قيام أول حملة عربية برية وبحرية ضد القسطنطينية ، إذ حين ترامت إلى سلطات الروم أنباء استعدادات معاوية للهجوم برًّا وبحرًا على القسطنطينية ، اندفع المردة مع قوات من الروم عبر جبال لبنان لإحداث اضطراب فى صفوف الحملة المنتظرة . ولكن المردة لم يلبثوا أن عادوا إلى قواعدهم حين عبأ معاوية قواته للقضاء عليهم ، وانسحب الروم إلى آسيا الصغرى .

وترتب على إغارة المردة تعديل فى سياسة العرب البحرية ، إذ أدركوا ضرورة تأمين أسباب التعاون بين قواتهم البرية والبحرية ، حتى يتجنبوا عنصر المفاجأة ، ولاسيما أنهم على أهبة توسع بحرى عظيم ، فوضع معاوية جماعة من خيرة جند العرب فى مراكز حربية على امتداد جبال لبنان استطاعت أن تحمى ظهر القوات البرية والبحرية فى نفس الوقت فى إقليم الشام (١) .

وفى سنة ٤٩ هـ ـــ ٦٦٨ م أرسل معاوية حملة استطلاعية برية وبحرية لدراسة الطرق المؤدية إلى القسطنطينية . (٢) وفى العام التالى أعد معاوية مددًا آخر لشد أزر القوات البرية والبحرية التى خرجت للهجوم على القسطنطينية فى العام السالف ، ووضع على رأسها ابنه وولى عهده يزيد ، وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس أن ضم إلى ابنه شخصية كبيرة من أصحاب الرسول الكريم ، وممن لعبت دورًا رئيسيًّا فى مُؤازرته ونصرة دعوته ، وهو أبو أيوب الأنصارى ، الذى أشرنا إليه آنفاً .

---

(١) البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ١٦٩ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

وعلى ضفاف البسفور نقلت السفن العربية تلك الأمداد التى حاصرت القسطنطينية ، وقد أظهر الجند العرب فى ذلك الحصار تفانياً عظيماً ، جعل يزيد يلقب لشهامته باسم « فتى العرب » ، على حين توفى أبو أيوب الأنصارى ــ كما سبق أن ذكرنا ــ وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها (١) . ثم رفع العرب الحصار سنة ٦٦٩ م ، بعد أن تبين لهم أن خير سبيل للاستيلاء على القسطنطينية هو إعداد أسطول قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية .

وتعتبر الحملة التى قادها يزيد بن معاوية ضد القسطنطينية حملة استطلاعية ، استهدفت معرفة موقع تلك العاصمة ، وأمثل الطرق للاستيلاء عليها ، وكانت نتيجة تلك الدراسات التمهيدية هى أن الهجوم على القسطنطينية يتطلب إعداد أسطول عربى قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية ، وضرورة وضع خطة تنسق التعاون بين كل من القوتين البرية والبحرية أثناء حصار تلك المدينة المنيعة .

واكتسبت القسطنطينية تلك المكانة الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها تقريباً من ثلاث جهات ، فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطئ الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف فى التاريخ باسم « القرن الذهبى » ، وبين القرن الذهبى وبحر مرمرة قامت رأس أرض تلالية ، على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه يقابل الشاطئ الآسيوى . وعلى تلك البقعة الفريدة نشأت القسطنطينية التى صارت تنعم بميناء طبيعى فى القرن الذهبى ، يكفل لأساطيلها الحماية ، فضلا عن حصانة المدينة نفسها ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية .

---

(١) المرجع السابق . ج ٦ ص ١٣٠

وبعد أن قام العرب بحملتهم الأولى الاستطلاعية ضد القسطنطينية ، وجه أباطرة الروم جهدهم لتأمين وتدعيم وسائل الدفاع عن تلك العاصمة ، واستهدفت سياسة الروم إقامة حلقة محكمة من الأسوار والحصون تكفل للعاصمة مقاومة أى حصار يفرض عليها ، برًّا كان أم بحرًا ، ولأطول مدة ممكنة . فشيد الأباطرة على جانب القسطنطينية البرى الممتد من البسفور إلى القرن الذهبى سورًا متيناً ، صار يُكَوِّنُ قاعدة المثلث الذى تحتله المدينة. واشتمل ذلك السور على جدارين ، أحدهما ملتصق مباشرة بالمبانى ، ويكون خط الدفاع البرى الأول ، وتعلوه الأبراج والحراس ، والجدار الثانى الخارجى أكثر ارتفاعاً من الجدار الداخلى ، ويحيط به خندق عرضه ٦١ قدماً لعرقلة زحف القوات المعادية على العاصمة .

غير أن اهتمام الأباطرة الأعظم اتجه إلى شئون العاصمة البحرية ، إذ أقاموا جداراً هائلة للدفاع عن القسطنطينية من ناحية البحر ، وغدت تلك الأسوار تحيط بجميع الجهات البحرية الثلاث للعاصمة ، وتعتمد فى منعتها وقوتها على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سُمك الجدار وضخامته ، فكان على امتداد القرن الذهبى وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بالسور الأرضى الذى يُكَوِّنُ خط الدفاع البرى عن العاصمة .

ولم يقف اهتمام السلطات فى القسطنطينية عند الجانب الدفاعى الخاص بإقامة الأسوار ، وإنما حصنوا أيضاً الموانى التى ترسو بها الأساطيل المدافعة عن العاصمة . فإلى جانب القرن الذهبى كان للقسطنطينية موانى أخرى صغيرة تطل على البسفور ، وأدَّت تلك الموانى برغم صغرها دورًا هامًّا فى تسهيل الملاحة فى مياه القسطنطينية ، إذ كانت السفن تجد فيها أماكن هادئة تأوى إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، والذى يزيد من حدته هبوب الرياح الشمالية العاصفة ، فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً

عرقلة السفن التى تبغى الطواف حول رأس القسطنطينية ودخول القرن الذهبى ، لتلقى مراسيها عنده .

وفى ذلك الوقت الذى جهدت فيه دولة الروم فى تحصين عاصمتها ، صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على القسطنطينية قبل أن يتم الأباطرة وسائل الدفاع عنها ، وكان للأسطول العربى المكانة الأولى فى تلك الحملة التى سارت طلائعها فى سنة ٥٣ هـ — ٦٧٣ م بقيادة عبد الرحمٰن بن خالد ، وقد حل فصل الشتاء والأسطول فى طريقه إلى مياه القسطنطينية ، فألقت السفن مراسيها على شاطئ قليقية حتى يتحسن الجو .

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول عربى آخر ، ثم استأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفى شهر أبريل اجتاز الأسطول العربى مضيق الدردنيل بدون أن يلقى مقاومة ، واستولى على جزيرة قزيقوس (أرواد فى المراجع العربية) فى مياه القسطنطينية الإقليمية ، واتخذها قاعدة لإدارة حملاته ضد العاصمة .

وجرت أحداث الحصار العربى للقسطنطينية وفق خطة كان للأسطول فيها الدور الرئيسى ، إذ نقلت السفن العربية الجند إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية الخارجية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تمتد سفنه بين رأس « هبدومون » التى تبعد سبعة أميال عن أسوار القسطنطينية ، وبين رأس « كيكلبيوس » الواقعة بالقرب من أحد أبواب العاصمة المعروف بباب الذهب .

واستمر الحصار البرى البحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر ، حيث تخللته المناوشات بين أساطيل العرب والروم ، وبين جند كل منهما كذلك ، فكانت سفن الروم والعرب تتصادم من الصباح إلى المساء ، على حين

تتراشق القوات البرية بالسهام والقذائف . وظلت المعارك بين الفريقين سجالاً بدون أن يستطيع أحدهما التغلب على الآخر .

وفى شهر سبتمبر ، أى بحلول الشتاء ، رفع العرب الحصار عن القسطنطينية ، بسبب رداءة الأحوال الجوية بالقرب من تلك المدينة ، ولكن العرب أظهروا بفضل أسطولهم من الجد والمثابرة ما أثار قلق سكان عاصمة الروم ، إذ فى شهر سبتمبر ، الذى رفع فيه العرب الحصار ، عادت سفن أسطولهم تحمل الجند إلى جزيرة أرواد ، التى بها قاعدة الأسطول ، لتقضى بها فصل الشتاء ، وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة .

وبمطلع الربيع عادت سفن الأسطول العربى تحمل الجند إلى أسوار القسطنطينية ، على حين تابع الأسطول حصار المدينة بحرًا ، كما حدث فى العام السالف ، وقد أنزل الأسطول العربى بالجند المدافعين عن القسطنطينية خسائر فادحة ، ولكن بدون أن يتمكن من اقتحام الأسوار البحرية ، وسرعان ماحل الشتاء مرة أخرى ، واضطر الأسطول إلى نقل الجند ثانية إلى جزيرة أرواد .

وقد تكررت تلك الخطة الحربية لحصار القسطنطينية سبع سنوات ، يبدأ الأسطول العربى فيها بنقل الجند إلى أسوار المدينة فى مطلع الربيع ، ثم يكمل هو حلقة الحصار من البحر ، ثم يعود فينقل الجند شتاء إلى جزيرة أرواد انتظارًا لمقدم الربيع التالى ، وهكذا . وأظهر أمراء البحار العرب فى أحداث هذا الحصار الكثير من ضروب البسالة والشجاعة ، ذلك أن الروم قد عرفوا فى تلك الفترة النار البحرية لأول مرة ، وهى سلاح خطير أتعب الأسطول العربى ، لأن كرات النار التى قذفها الروم كانت تشتعل على الماء وعلى ظهور السفن على السواء ، بدون أن يعرف العرب إذ ذاك وسيلة لإطفائها .

غير أن هذا السلاح الجديد لم يفت فى عضد أمراء البحار العرب ، وإنما جاءتهم الإمدادات البحرية تباعاً ، إذْ وصل أسطول عربى آخر تحت قيادة

سفيان بن عوف شد من أزر القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية ، على حين أسهمت السفن العربية فى مهاجمة أساطيل الروم وحملتها على الانزواء فى موانى العاصمة ، برغم استخدام تلك الأساطيل للنار البحرية .

وبعد سبع سنين من تلك الحروب المضنية أحس معاوية بن أبى سفيان بدنو أجله ، وأنه لابد من سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية حتى لاتتعرض تلك الحملة إلى الأخطار إذا ماحلت به الوفاة وهى مازالت مشتبكة مع العدو ، ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الروم لسحب أسطوله وقواته ، وكانت دولة الروم تتلهف على إنهاء ذلك الحصار القاسي ، وأرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يُوحنا ، وهو من أشهر رجالها الدبلوماسيين ، وأكثرهم ذكاء وفطنة .

وقد حضر يوحنا جلسات كثيرة فى دمشق ، ضمت خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للخلافة الأموية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ، ولذا نجحت مفاوضات يوحنا فى عقد صلح بين دولته والخلافة الأموية مداه ثلاثون عاماً ، وبعد إبرام المعاهدة عادت الأساطيل العربية والقوات البرية من حصارها للقسطنطينية إلى قواعدها بالشام ، بعد أن أثبت العرب للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية العربية الناشئة وضرباتها الشديدة .

وتعتبر تلك الحملة البحرية على القسطنطينية عنواناً على قوة جَلَدِ العرب وقدرتهم على اكتساب الخبرات فى الميدان البحرى فى سرعة فائقة ، إذ عرف أمراء البحار طبيعة المنطقة التى تشغلها عاصمة الروم ، وقوة أسوارها وأنواع استحكاماتها ، وذلك على أسس من الدراسة والتمحيص ، بدون أن يعتمدوا على الارتجال ، ويدل على ذلك اختيار جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية لتكون مركزًا لحركات الأسطول العربى فى الصيف والشتاء فى مياه تلك

العاصمة ، وكذلك دلت أحداث الحصار البحرى على أن العوامل الطبيعية وحدها من تدفق التيارات المائية هى التى عرقلت استيلاء الأسطول العربى على القسطنطينية .

ولقد كان معاوية بعيد النظر حين عجل بسحب الأسطول العربى بعد أن حاصر القسطنطينية حصارًا شديدًا مدة سبع سنوات كاملة ، إذ ما كادت سفن الأسطول تلقى مرساها فى قواعد الشام سنة ٦٨٠ م حتى توفى معاوية فى نفس العام ، تاركاً ابنه يزيد الذى تولى منصب الخلافة وسط معارضة شديدة من بعض كبار رجالات العرب ، وعلى رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير .

وقد ترتب على تلك المعارضة الشديدة حدوث انقسام فى الدولة الإسلامية ، وقيام حروب أهلية مريرة صرفت جهد البيت الأموى عن متابعة النشاط البحرى ، وفضلاً عن ذلك فإن مشاكل البيت الأموى لم تنتهِ بقضاء الخليفة يزيد بن معاوية على ثورة الحسين بن على بن أبى طالب ، بل حدث أنشقاق فى البيت الأموى نفسه عقب وفاة يزيد وتخلى ابنه معاوية الثانى عن الخلافة ، ذلك أن نفرًا من بنى أمية تطلع إلى انتزاع الخلافة لنفسه ، وانتهى النزاع سنة ٦٤ هـ ـــ ٦٨٥ م حين تولى مروان بن الحكم الخلافة ، مسجلاً بذلك انتقال زمام الدولة الإسلامية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى .

ولم يترتب على ذلك الانقلاب فى مصدر السلطان فى البيت الأموى تغيير فى سياسة العرب البحرية تجاه البحر المتوسط ، إذ تابع أفراد البيت المروانى سياسة الفرع السفيانى فى الاهتمام بالأسطول العربى ، وتدعيم قواعده فى البحر المتوسط ، وكانت آية هذا النشاط المروانى هو نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان فى إقصاء المردة ـــ الذين دأب الروم على استغلالهم فى شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربى ـــ عن أماكنهم نهائيًا بجبل اللكام .

ويرجع نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دهائه ، وقصر نظر معاصره إمبراطور الروم ، وهو جستنيان الثانى ، إذ دخل عبد الملك مع هذا الإمبراطور فى مفاوضات تستهدف نقل المردة من جبل اللكام إلى داخل أراضى الروم مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنويًّا . ولم يجد عبد الملك أية غضاضة فى دفع هذا المبلغ مقابل إبعاد أكبر خطر يتهدد قواعد الأسطول العربى بالشام ، ونجحت تلك المفاوضات ، حيث نقل جستنيان الثانى ١٢٠٠٠ من المردة إلى رومانيا ، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتبعثرت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى (١).

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة فى دعم الأسطول العربى ، فى فترة كان مشغولا فيها بثورة عبد الله بن الزبير ، الذى حمل لواء المعارضة للبيت الأموى بعد مقتل الحسين بن على بن أبى طالب . وقد أحس المعاصرون من الروم خطورة عمل جستنيان الثانى ، وفداحة الخطأ الذى تردى فيه حين أجاب الخليفة عبد الملك إلى طلبه ، إذ قال أولئك المعاصرون : إن نقل المردة حطم « الستار الحديدى » (٢) الذى وقف فى وجه طلائع الأسطول العربى وقواته فى هجومها على بلاد الروم .

وعندما توفى الخليفة عبد الملك سنة ٧٠٥ م ، ترك لابنه الوليد دولة ثابتة الأركان ، ولاسيما بعد أن نجح فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . وكان الوليد خير خلف لأبيه ، إذ تابع سياسة تقوية الأسطمل العربى ، وخَلْقِ تَعاوُنٍ قوى بينه وبين القوات البرية . واتخذ الوليد من بلاد الروم فى آسيا الصغرى ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون فى الهجوم على معاقل الروم ، تمهيدًا للزحف على القسطنطينية .

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ١٣٠ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٠٨ .

وأسهم الأسطول العربى فى تلك التدريبات مساهمة فعالة ، اتسمت بالمغامرة كذلك . وفى إحدى حملات الأسطول العربى سنة ٩٠ هـ — ٧٠٩ م وقع أمير البحر العربى خالد بن كيسان أسيرا فى أيدى أسطول الروم ، غير أن إمبراطور الروم آثر مهادنة العرب ، وأعاد خالد بن كيسان للخليفة الوليد ، برهاناً على تطلعه إلى الوئام والسلام (١) .

ولكن الخليفة الوليد لم يغض النظر عن عاصمة الروم ، وأدرك ضرورة الزحف على تلك العاصمة ليحرم أسطول أعدائه من أهم قاعدة له فى البحر المتوسط ، ولذا أخذ الوليد يعد حملة بحرية وبرية قوية ، نَصَّبَ عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفى سنة ٧١٤ م ترامت إلى سلطات الروم أنباء الاستعدادات البحرية العربية ، فأوفد الإمبراطور أنسطاسي سفارة إلى دمشق تفاوض الأمويين فى عقد هدنة ، وتتأكد فى نفس الوقت من مدى استعداد الأسطول العربى ، وكان رئيس تلك السفارة رجلا حصيفاً يدعى دانيال ، حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد دولة الروم على صدق تقاريره (٢) .

ولما وصلت سفارة الروم إلى دمشق شاهد ضخامة الاستعداد البحرى والبرى ، وعادت تحمل تلك الأنباء إلى العاصمة ورجالها فى القسطنطينية ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع ، ولاسيما الاهتمام بالناحية البحرية . واتجهت خطة الروم البحرية إلى خلق قاعدة لأسطولهم ، تكون مهمتها عرقلة زحف الأسطول العربى على القسطنطينية وإنشاء قاعدة أخرى قوية فى العاصمة نفسها لمقاومة حصار الأسطول العربى إذا ما استطاع الوصول إلى مياه القسطنطينية .

---

(١) الطبرى : ج ٨ ، ص ٦٨ .

(٢) حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص ٢٢٠ .

وتجلت سياسة الروم الجديدة حين جعلوا من شواطئ آسيا الصغرى والجزر القريبة منها إقليماً بحريًّا حربيًّا ، ترسو فى قواعده سفن حربية على أهبة الاستعداد للقتال ، وفى نفس الوقت أقام الروم فى جهات بحر مرمرة المواجهة للقسطنطينية فرقاً بحرية تساعد أسطول العاصمة على الدفاع ، وقد نال أمير البحر على أسطول القسطنطينية سلطات واسعة ، تخول له حق تنظيم وسائل التعاون بين أسطول شواطئ آسيا الصغرى وأسطول ساحل بحر مرمرة (١) .

وفى نفس الوقت أعادت سلطات الروم تجديد أسوار القسطنطينية ، ولاسيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ثم وضعت على تلك الأسوار كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع ، واستعد سكان القسطنطينية لحصار قد يطول إلى ثلاث سنوات ، ووضعوا فى خزائن منازلهم كميات كبيرة من الغلال (٢) .

ورأى إمبراطور الروم المبادرة بعرقلة استعداد العرب البحرى ، ولاسيما أن وفاة الوليد وتولى أخيه سليمان الخلافة لم يترتب عليه فتور فى تلك الاستعدادات (٣) . إذ عمد الخليفة سليمان بدوره إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية فى مصر والشام والاستعانة كذلك بالأسطول العربى الفتى فى شمال إفريقيا التى ضُمَّتْ إذْ ذاك للدولة الإسلامية ، فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة فى دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول العربى المتجه لحصار القسطنطينية .

وعندما علم إمبراطور الروم بأنباء استعداد الأسطول العربى ، عمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى ، وتخريب الأخشاب التى يحملها قبل وصولها إلى

---

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجى : صور من الإسلام ص ٥٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٥٧ .
(٣) الطبرى : ج ٨ ، ص ١١٨ .

دور الصناعة فى مصر ، وعهد الإمبراطور إلى فرق الحرس الإمبراطورى ـــ وهى أشد فرق الجيش بأساً وتدريباً على فنون القتال البحرى ـــ بتنفيذ تلك المهمة ، ولكن باءت مجهودات الإمبراطور أنسطاسى بالفشل ، لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها له ، إذ شقت عصا الطاعة حين وصل الأسطول الذى يقلها إلى رودس ، وقتلت القائد الذى عينه الإمبراطور لإدارة عمليات الهجوم .

ورأى الخليفة سليمان حين وصلته أنباء ذلك العصيان أن الوقت قد حان لضرب القسطنطينية مرة أخرى .(١) وفى سنة ٩٨هـ ـــ ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية والأسطول العربى من الشام تحت إمرة أخيه مسلمة الذى سبق أن عينه الوليد قائدًا عامًّا ، وكانت خطة مسلمة أن تسبق القوات البرية الأسطول العربى فى الزحف عبر آسيا الصغرى ، وتمهد لخلع الإمبراطور ، ثم تنتظر الأسطول على الشاطىء الآسيوى عند البسفور .

وسارت الجيوش العربية عبر آسيا الصغرى ، واتفق مسلمة بن عبد الملك مع أحد قادة الروم الحانقين على الإمبراطور ، ويدعى ليو الإيسورى ، على الذهاب إلى القسطنطينية ، وإحداث فتنة بها ، مقابل تعهد مسلمة له بتنصيبه إمبراطورًا جديدًا على دولة الروم ، غير أن ليو حنث بتعهده ، إذ ماكاد يدخل القسطنطينية ، حتى استغل أنباء الحملة الإسلامية الزاحفة على العاصمة ، واستمال الناس بها إليه ، ثم عزل الإمبراطور أنسطاسى وتولى العرش ، معلناً قدرته على صد الهجوم المنتظر ، بسبب وقوفه على خطط العرب .

وبعد خمسة أشهر من تولى ليو العرش وصلت قوات مسلمة البالغ عددها ٨٠,٠٠٠ جندى إلى أسوار القسطنطينية ، وبعد ستة عشر يوماً من وصول

(١) اتخذ الخليفة مقر قيادته فى دابق بشمال الشام . « وأعطى الله عهدًا ألّا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية » . انظر الطبرى ج ٨ ص ١١٨ .

مسلمة إلى أسوار عاصمة الروم ، أى فى أول سبتمبر سنة ٧١٧ م دخل مياه البسفور أول أسطول عربى كبير مكون من ١٨٠٠ سفينة حربية ، عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين قواته البرية والأسطول العربى لإتمام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان ، أمير البحر العربى ، إلى سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ، ثم فَرَضَ حصارًا على الأسوار البحرية كذلك .

وأخذ الأسطول العربى ينفذ خطته ، فاحتل مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة ، الذى يعد مصدر تموين للعاصمة من الجنوب ، ثم انتهز أمير البحر سليمان فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطرًا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود ، ولاسيما أن شواطىء هذا البحر الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال .

وسارت السفن العربية الكبرى سيرًا بطيئاً لتحقيق الخطة الخاصة باحتلال المدخل الشمالى للبسفور ، بسبب التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، ثم حدث حادث قلب خطط الأسطول العربى رأساً على عقب ، إذ غيرت الرياح الجنوبية ، التى اعتمد عليها أمير البحر العربى فى إكمال حلقة الحصار البحرى على القسطنطينية ، اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة ، فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ، التى زادتها قسوة رداءة الملاحة فى تلك المياه الإقليمية للقسطنطينية .

وقد انتهز الروم تلك الفرصة التى نشرت الفوضى فى صفوف الأسطول العربى ، وبعثوا سفنهم المحملة بالنار البحرية ليزيدوا فى متاعب السفن العربية وبحارتها ، ولذا تعتبر طبيعة الملاحة حول القسطنطينية ، وكذلك الأحوال

الجوية حولها ، هى العامل الأول والرئيسى فى الحيلولة بين الأسطول العربى وبين تنفيذ خطته الخاصة بغلق مدخل البسفور الشمالى ، أما النار البحرية التى علقت عليها المراجع الأوربية أهمية كبيرة فى إنقاذ القسطنطينية ، فليست إلا عاملاً ثانويًّا أُضيف إلى أعباء العرب ، وأنها ليست العامل الأول أو الرئيسى فى فشل خطة الأسطول العربى ، إذ يُلاحظ أن الإمبراطور ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه المحملة بتلك النار إلا بعد أن لعبت الطبيعة دورها فى الوقوف فى وجه الأسطول العربى .

غير أن القائد العام ، مسلمة بن عبد الملك ، صمم على محاصرة القسطنطينية برًّا برغم بقاء جبهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة ، وظل الحصار مستمرًّا حتى جاء الشتاء ، فتابع الحصار برغم قسوة الطبيعة فى تلك الفترة من السنة (١) .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك ، فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد ، وهناك تَعَاوَن هذان القائدان البحريان مع مسلمة ، لأن أمير البحر ، السابق سليمان تُوفى من قبل أثناء الشتاء ، وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، اضطلعت بمهاجمة شواطئ البسفور البحرية لتحول بين السفن التابعة للروم وبين الخروج طلباً للحصول على صيد بحرى يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه .

واستخدمت القوات العربية لأول مرة النفط ، كما استعانوا بنوع من المجانيق

(١) كان القائد مسلمة قد احتاط للعوامل الجوية فى تلك المنطقة ، فعمل « بيوتاً من خشب شتا فيها وزرع الناس .. وأقام بالقسطنطينية قاهرًا ، ومعه وجوه أهل الشام » انظر : الطبرى : ج ٨ ص١١٧ .

أشبه بالمدفعية فى هذا الحصار ، وكذلك أبدى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية . وظهر من الجند العرب عبد الله البطال ، كبير حراس مسلمة بن عبد الملك ، الذى أبلى فى هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال ، وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص تناولت شجاعته باسم « السيد غازى » (١) .

غير أن حصار القسطنطينية ظل ناقصاً برغم أعمال البطولة التى أبداها الجند العرب ، ذلك أن العوامل الطبيعية بالقرب من القسطنطينية لعبت دورها مرة أخرى فى عرقلة نشاط الأسطول العربى ومنعه من مساعدة القوات البرية فى حصارها لعاصمة الروم ، إذ بينما وقفت الجيوش العربية أمام أسوار القسطنطينية وفرضت عليها حصارًا شديدًا ، لم يستطع الأسطول السير شمالاً للسيطرة على مضيق البسفور ، وكان السبب فى ذلك هو اشتداد تدفق التيار المائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، بسبب تغيير الرياح لاتجاهها فى تلك المنطقة من جنوبية إلى شمالية .

وقد ترتب على تلك العوامل الطبيعية عجز السفن الحربية عن عبور البسفور ، وبالتالى عدم تحقيق الخطة الخاصة بإحكام حلقة الحصار حول القسطنطينية ، فبينما نجحت بعض وحدات الأسطول العربى فى حرمان عاصمة الروم من الاتصال بمصادر تموينها فى الجنوب فى جزر بحر مرمرة وبحر إيجه كذلك ، ظلت الجبهة الشمالية للعاصمة على اتصال بسواحل البحر الأسود ، التى أمدتها بما احتاجت إليه من الغلال وغير ذلك من المواد الغذائية ، وكانت القسطنطينية ترى فى جبهتها الشمالية مصدر الحياة الحقيقى ، برغم أن الجهات الجنوبية القريبة منها أمدَّتها بالرجال والقوى المحاربة ، فكان سكان عاصمة الروم يرتبون خططهم الدفاعية على أساس الاستقلال عن المساعدات الحربية ، وبذل قصارى جهدهم فى الاحتفاظ بمصادر غذائهم من ناحية الشمال .

(١) العيون والحدائق : ج ٣ ، ص ٢٤ .

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصار العربى للقسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتردد صدى هذا التغيير فى سير الحملة المحاصرة للقسطنطينية ، إذ رأى الخليفة الجديد أن الأوضاع الخاصة بالدولة الإسلامية تتطلب تنظيماً وتدعيماً بعد أن صارت رقعتها شاسعة ، وأن إيقاف العمليات الحربية الكبرى شرط أساسى للحصول على الاستقرار المنشود لتلك الدولة الشاسعة .

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية ، فأرسل فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، أى بعد حصار دام اثنى عشر شهرًا كاملاً ، يطلب من مسلمة العودة بأساطيله وجيوشه إلى الشام ، وبذلك عادت تلك الحملة العربية التى تعد من أضخم الأعمال البحرية التى شاهدها البحر المتوسط طوال تاريخه الحافل بالنشاط الحربى .

وإذا كانت طبيعة الملاحة بالقرب من القسطنطينية قد حالت بين الأسطول العربى وبين الاستيلاء على تلك العاصمة ، فإن نتائج النشاط البحرى العربى فى مياه القسطنطينية قد تردد صداه فى الشطر الغربى من البحر المتوسط ، ذلك أن تكريس الروم لجهودهم وأساطيلهم من أجل الدفاع عن عاصمتهم ضد النشاط البحرى العربى قد هيأ للأسطول العربى خلق قاعدة جديدة له فى شمال إفريقيا ، صارت فيما بعد دعامة السيادة العربية فى غرب البحر المتوسط .

— ٢ —

الأسطول العربى فى شمال إفريقية

ولقد سارت خطوات نشاط البحرية العربية فى غرب البحر المتوسط فى طريق مماثل لنشأة النشاط البحرى العربى فى الشطر الشرقى من هذا البحر ، ذلك أن أحداث الفتح العربى لشمال إفريقيا ، الذى بدأ بعد الاستيلاء على مصر ، حمل العرب على بناء أسطول لهم فى مياه المغرب يساعدهم على إتمام مشاريعهم وتأمين فتوحاتهم .

وكانت بلاد شمال إفريقيا تابعة للروم ، الذين عمدوا إلى التشبث بالدفاع عن هذا الجزء من ممتلكاتهم ليكون عوضاً لهم عما فقدوه من ولايات فى شرق البحر المتوسط . وكان الإمبراطور قنسطانز الثانى هو صاحب تلك السياسة الجديدة بعد هروبه من وقعه ذات الصوارى البحرية (٣٤هـ — ٦٥٥ م) . فبينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان بن عفان وماتلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول ذلك الإمبراطور إلى العناية بشمال إفريقيا .

ودفع الإمبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا عجزه عن هزيمة الأسطول العربى الذى ظهر بأسه فى وقعة ذات الصوارى ، ومن ثَمّ أخذ يعمل على تنظيم شئون دولته البحرية بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن العرب صاروا قوة كبيرة فى البحر المتوسط ، وأن الحكمة تقضى خلق قاعدة بحرية للروم بعيدة عن بطش الأسطول العربى الفتى ، وتكون وسيلة فى المستقبل لكسر شوكته .

وبدأ قنسطانز ينفذ سياسته البحرية الجديدة حين اختار صقلية لتكون

مركزًا للمقاومة ضد النشاط البحرى العربى المتزايد ، فنقل عاصمته إلى تلك الجزيرة بعد وقعة ذات الصوارى ، ثم عهد إلى تدعيم أساطيله هناك بربط ماتبقى لدولته من أملاك فى إيطاليا مع ممتلكاته فى شمال إفريقيا لتصير قوة لها بأسها ، واستهل قنسطانز نشاطه البحرى الجديد من عاصمته سرقوسة (سيراكوز) بصقلية ، حيث بعث أساطيله منها لتغير على القوات العربية التى وصلت طلائعها إلى تونس .

ونجح قنسطانز بفضل قوته البحرية فى استرداد الأقاليم التى فتحها العرب فى برقة وتونس ، كما حصن مدن شمال إفريقيا الهامة مثل قرطاجنة ، وزاد عدد السفن الحربية فيها . غير أن أعمال قنسطانز اتسمت بالقسوة ، ونجم عنها مؤامرة انتهت بالتخلص منه ، وقتله غيلة فى عاصمته الجديدة ، وذلك فى ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م .

غير أن مقتل قنسطانز لم يؤثر فى سياسة الروم البحرية فى غرب البحر المتوسط ، إذ صارت أساطيل الروم تقف بالمرصاد للفتوحات العربية التى اتجهت فى نشاط إلى شمال إفريقيا بعد تولى معاوية بن أبى سفيان عرش الخلافة ، فعندما خرج عقبة بن نافع لغزو شمال إفريقيا سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م اتبع الطريق الداخلى ليكون بمأمن من إغارات سفن الروم ، ثم إنه أسس أول قاعدة عربية حربية فى شمال إفريقيا ، وهى القيروان [١] بعيدًا عن الساحل ، حتى تكون عسيرة المنال على الأساطيل المعادية [٢] .

ولكن سياسة عقبة لم يكتب لها النجاح بسبب وجود أساطيل الروم وقدرتها على الاتصال بالبربر سكان شمال إفريقيا ، إذ أعد الروم بالاتفاق مع البربر كميناً عند بلدة تهودة ، قضى على عقبة أثناء عودته من إحدى الإغارات

(١) القيروان ، لفظ فارسى معرب ، معناه قافلة أو مراح القوافل .
(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص٦ .

بشمال إفريقيا »(١). وقد عجز زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة والذى سار سنة ٦٩ هـ ــ ٦٨٨ م إلى شمال إفريقيا عن تدعيم الفتوحات العربية هناك بسبب سياسة الروم البحرية كذلك .

وكانت خطة الروم تجرى على أساس استغلال افتقار العرب إلى أسطول يساند فتوحاتهم وزحفهم على شمال إفريقيا ، فلم يتعرض أسطول الروم لقوات زهير أثناء توغلها فى بلاد المغرب ، حتى صارت خطوط التموين العربية طويلة ومن السهل مهاجمتها من البحر ، ولم يتنبه زهير لهذا الخطر الكامن له من ناحية البحر ، وتابع فتوحاته ، وعندما فرغ زهير من حملته قفل عائدًا إلى برقة ، حيث جرت العادة على عودة القوات العربية إلى مصر بعد إنهاء مهمتها فى شمال إفريقيا .

وفى تلك الأثناء تجمعت سفن الروم بالقرب من ساحل برقة لمهاجمة قوات زهير وهى منهوكة القوى ، لتنقضَّ عليها فجأة ، وقد علم زهير عندما اقترب من برقة بنزول جند من الروم على ساحلها ، بدون أن يتوقع قوة استعداد الروم البحرى ، إذ اعتقد زهير أن سفناً ضئيلة للروم قد رست بشواطئ برقة ولاضير من مهاجمتها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسيز من قواته ليستطلع الأخبار فوجد الروم فى سفن كثيرة العدد ، ومعهم عدد من أسرى المسلمين ، ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهيرًا حتى استغاثوا به مستنجدين ، فأخذت الحمية زهيرًا ومن معه وأسرعوا بمهاجمة سفن الروم لتخليص الأسرى ، غير أن الروم كانوا قد أعدوا معسكرًا على الشاطئ بعيدًا عن أعين العرب ، ولذا ماكادت أقدام زهير ومن معه تطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند الروم المختفى فى

---

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص٣٨ ، ابن عبد الحكم ص ١٩٨ .

المعسكر ، ودارت رحى معركة قاسية ، استشهد فيها زهير ، كما استشهد عقبة من قبل عند تهودة (١) .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى فى سياسة العرب البحرية فى غرب البحر المتوسط ، إذ أدركت السلطات الأموية فى دمشق أن الموقف يتطلب انتزاع قواعد الروم البحرية بشمال إفريقيا ، ثم إنشاء أسطول عربى آخر فى مياه تلك الجبهة الجديدة ، تكون مهمته القضاء على سيادة الروم البحرية فى غرب البحر المتوسط .

واضطلع بتنفيذ تلك السياسة العربية البحرية الجديدة حسان بن النعمان الذى اتجه إلى شمال إفريقيا سنة ٧٦ هـ — ٦٩٥ م . وبادر حسان بمهاجمة قرطاجنة ، أقوى قاعدة لأسطول الروم فى مياه المغرب ، وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، ومن ثم فاجأ المدينة بقواته الهائلة وأنزل بالروم هزيمة فادحة ، انسحبت على إثرها سفنهم بالميناء ، والتجأت إلى صقلية (٢) .

غير أن الروم انتهزوا ابتعاد حسان فى فتوحاته عن قرطاجنة وعادت أساطيلهم مرة ثانية إليها ، واستولت على هذا الميناء الهام بعد قتل الحامية العربية ، ولكنَّ حساناً عاد سريعاً وأفسد خطة الروم باسترداده لقرطاجنة (٣) . وقد جذبت تلك الإغارة أنظار حسان إلى الخطة البحرية التى يجب أن يسير عليها إزاء الروم ، إذ عرف أن للروم على الساحل معاقل أخرى يتخذونها وسيلة لاسترداد قواعدهم البحرية الكبرى .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٤ ، ص ١٧٨ .
(٢) البكرى وصف إفريقيا ، ص ٣٧ ، وابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
(٣) ابن عذارى ، المقرب ج ١ ، ص ٢٠ .

ومن ذلك أن الروم حاولوا بعد خروجهم من قرطاجنة للمرة الثانية اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس ، والذى تقع فيه بنزرت مقرًّا لأعمالهم الحربية ضد العرب ، وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة ، وتضم عددًا كبيرًا من المدن التى تعتمد على البحر فى الدفاع عن نفسها والحصول على الإمداد ، ولذا بادر حسان بطرد الروم من تلك الجهات الساحلية ودعم أقدام العرب فيها (١) .

ولكن حساناً أحس أن الروم لن يكفوا عن إغارتهم طالما يفتقر العرب إلى أسطول يحمى شواطىء شمال إفريقيا ، وكان حسان صادق الظن ، إذ انتهز إمبراطور الروم انشغال حسان بفتن داخلية فى شمال إفريقيا ، وبعث سنة ٧٨ هـ — ٦٩٧ م أسطولا عظيماً على رأسه أشهر قادته ، وهو البطريق يوحنا ، واستولى على قرطاجنة مرة أخرى ، ومن ثم بعث حسان فى طلب أسطول عربى يشد من أزره فى استرداد قرطاجنة ، وجاءته عدة سفن حربية كانت أول قوة بحرية عربية ظهرت فى مياه شمال إفريقيا .

واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال نصرًا باهرًا على الروم ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم ، انتهت بانتصار العرب ، الذين أثبتوا للروم مرة أخرى أن أسطول العرب الفتى قد صار قوة شديدة البطش ، وآثر أمير البحر على أسطول الروم الفرار عائدًا إلى بلاده . ثم إن حساناً رأى أن يتخذ هذا الأسطول العربى الذى جاء لنجدته نواة لخلق قوة بحرية فى أرض المغرب ، تعمل على شد أزر العرب فى فتوحاتهم وأعمالهم ، فأنشأ قاعدة تونس (٢) . التى حلت محل قرطاجنة ، وصارت مركز البحرية العربية ونشاطها المبكر فى غرب البحر المتوسط .

وخطا الأسطول العربى الفتى فى غرب البحر المتوسط خطوات سريعة فى

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

سبيل المجد والقوة ، على نحو ما قام به قرينه فى شرق البحر المتوسط ، وتجلت مظاهر نشاط الأسطول المغربى فى عهد ولاية موسى بن نصير ، الذى خلف حسان بن النعمان على شمال إفريقيا سنة ٨٩ هـ — ٧٠٧ م . إذ استهل هذا الوالى الجديد حكمه بإرسال أسطوله لمطاردة الروم من قواعدهم فى الجزر القريبة من الممتلكات العربية فى شمال إفريقيا ، فهاجمت السفن المغربية جزر منورقة وميورقة بالقرب من سواحل أسبانيا ، وضمتها إلى التبعية للعرب بشمال إفريقيا (١) .

وفى عهد موسى بن نصير قام العرب كذلك باستخدام أسطولهم لفتح شبه جزيرة أيبيريا ، والانتقال إلى مرحلة جديدة من التوسع ، وإتمام سيادتهم على البحر المتوسط . وفى سنة ٧١٠ م خرج أحد قادة موسى بن نصير ، وهو طريف ، على رأس حملة بحرية قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس استولت على شبه الجزيرة الصغيرة التى تعتبر أقصى جزء فى الجنوب من القارة الأوربية .

ولقد ظلت شبه الجزيرة تحمل اسم طريف إلى الآن ، حيث « تدعى تاريفا » أى جزيرة طريف ، وتمثل النتائج الأولى لنشاط العرب البحرى فى الميدان الغربى للبحر المتوسط . ثم لم تلبث جهود العرب البحرية أن اتسعت فى العام التالى لغزوة طريف ، حيث قام طارق بن زياد على رأس حملة كبيرة أقلتها سفن عديدة إلى الصخرة العظيمة ، التى مازالت منذ ذلك اليوم تخلد هذا العبور البحرى العظيم ، وهى جبل طارق . وتابع موسى بن نصير الاهتمام بالأسطول العربى فى المغرب لنقل الإمدادات الحربية وغيرها إلى المقاتلين فى أسبانيا ، حتى انتهى الأمر باستيلاء العرب على هذا الركن الهام من جنوب أوربا .

ثم إن الأسطول العربى المغربى على عهد موسى بن نصير سنجل نصرًا بحريًا

---

(١) أبو المحاسن ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

آخر ، ساعد على تقدم العرب البحرى فيما بعد نحو الاستيلاء على الجزر الكبرى فى البحر المتوسط ، ذلك أن موسى بن نصير وجه نظره إلى السيطرة على جزيرة قوصرة (١) ، وهى المشهورة اليوم باسم بنطلارية ، بسبب قربها من البلاد التونسية ، من الشمال الشرقى . وقد تمتعت تلك الجزيرة بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال إفريقيا ، ويمكن اتخاذها فى نفس الوقت قاعدة للتوسع البحرى كذلك ، إذا تقترب جزيرة قوصرة من صقلية ، التى كانت القاعدة الكبرى لأسطول الروم فى غرب البحر المتوسط ، ومركز المقاومة لنشاط العرب البحرى .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لتلك الجزيرة لأنها ، « قبالة إفريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى ، ويوجد بها شجر المُصْطَكَى ، ويجلب منها التين والقطن الكثير » ، وقد صمم موسى ابن نصير سنة ٨٨ هـ — ٧٠٧ م على الاستيلاء على تلك الجزيرة الهامة ، واتخاذها قاعدة أمامية لأسطوله فى صد هجمات الروم ، وقد انتدب لتلك المهمة أحد قادته الأبطال ، وهو عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى خرج على رأس أسطول قوى من القاعدة البحرية الجديدة فى تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها إلى ولاية إفريقية (٢) .

وتابع خلفاء موسى بن نصير سياسة الاحتفاظ بتلك الجزيرة فى حيازتهم ، ذلك أن الروم عمدوا إلى انتزاعها من أيدى الأسطول العربى خوفاً من قربها من قاعدتهم بصقلية ، ومن ذلك أن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سار إلى قوصرة

---

(١) قوصرة اسم يونانى ومعناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، ويبدو أن هذا الاسم أطلق عليها للمشابهة الموجودة بين صورة الجزيرة والسلة ، وتحمل كلمة قوصرة فى اللغة العربية نفس المعنى ، وهو وعاء التمر أو القفة والزنبيل . (انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة العربية بالمجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٤٩) .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق .

على رأس أسطول آخر سنة ١١٨ هـ ــ ٧٣٦ م ، ودعم السيادة العربية بها . غير أن استيلاء العرب نهائيًا على تلك الجزيرة كان سنة ١٣٠ هـ ــ ٧٤٨ م حين أوفد الأمير عبد الرحمٰن بن حبيب الفهرى حملة بحرية سيطرت تماماً على جزيرة قوصرة ، وجعلتها قاعدة دائمة للأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط (١) .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته الجديدة فى جزيرة قوصرة ، إذ خرجت سفنه تباعاً من تلك الجزيرة حيث أغارت على صقلية ، وأنزلت التخريب والتدمير بأسطول الروم الراسى فى موانيها . وقد ساعدت تلك الحملات البحرية على دراسة شواطىء صقلية دراسة تامة ، وجعلت العرب على خبرة كبيرة بقواعدها ، وخير الطرق للاستيلاء عليها . وظهرت نتائج حملات العرب البحرية التى خرجت من جزيرة قوصرة حين قامت أسرة الأغالبة فى تونس ، إذ اتخذت من تلك الجزيرة قاعدة لتحقيق سياستها فى الاستيلاء على جزيرة صقلية ، وبعث نشاط بحرى عربى حافل فى غرب البحر المتوسط .

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب المرجع السابق .

الفصل الرابع

الفتوحات الإسلامية فى المشرق

الفتح العربى فى المشرق

والكلام هنا يتناول جبهتين : خراسان ، ثم سجستان . فأما عن خراسان : فإنها كانت قد أصبحت فى عهد معاوية قاعدة هامة للدفاع عن حدود الدولة فى الشرق ، ولغزو الترك فيما وراء النهر (نهر بلخ ، أو جيحون) وبدأت منها بعض الفتوحات ، ولكن الأمور اضطربت فيها حينما حدثت الفتنة ، واستعرت روح العصبية القبلية ، فأدى ذلك كله إلى توقف الفتوحات . وبعد حروب قبلية تَغَلّبَ على خراسان رجل من مضر اسمه « عبد الله بن خازم » ، وأخيرًا قُتل فى بعض هذه المواقع عام ٧٢ هـ .

فبعد سنتين ، أرسل أهل خراسان إلى عبد الملك يطلبون أن يولى عليهم والياً قُرشيًّا ، حتى لايقع التنافس بين القبائل ، فأرسل إليهم « أمية بن عبد الله » — وهو أخو « خالد بن عبد الله » — وهما من بنى أمية ، فانتظمت الأحوال أحسن من ذى قبل ، لكن لم يقضِ على المنازعات ولم تبدأ فتوح جدية ، ولم يثبت أمية كفاءته ، فعزله عبد الملك فى عام ٧٨ هـ ، وعين الحجاج الثقفى والياً على المشرق كله — بما فيه خراسان وسجستان — فاختار الحجاج المُهلّب بن أبى صفرة بعد أن انتصر على الخوارج ، وعينه والياً على خراسان . فَقَدِم إليها فى عام ٧٩ هـ ، فأخذت الأمور فى الاستقرار منذئذ ، وبدأ عهد من النشاط والتقدم ، واستؤنفت الفتوحات .

عبر « المهلب » النهر (نهر جيحون) الفاصل بين إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر — كما كانت تسميها العرب — وهى الآن بلاد « تركستان » وكان عبوره ذلك فى عام ٨٠ هـ . ثم بعث المهلب أولاده لغزو الجهات ، حتى

قاربوا مدينة « بخارى » . ومكث المهلب سنتين وراء النهر ، وأعاد للدولة هيبتها ، ومات فى عام ٨٢ هـ ، ومما يذكر أنه أحضر أولاده وأوصاهم وصية غالية بالاتحاد وعدم التفرق ، ومثل لهم ذلك بأن دعا بمجموعة من السهام ، فحزمت ، فقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة .

فولى الحجاج يزيد بن المهلب فى عام ٨٣ هـ مكان أبيه ، فتمكن يزيد من الاستيلاء على قلعة « باذغيس » الحصينة فى عام ٨٤ هـ . ثم فى العام التالى عزله الحجاج وولى مكانة أخاه « المفضل بن المهلب » . فلبث فى الولاية تسعة أشهر فتح فى أثنائها منطقة « باذغيس » كلها ، واستولى على حصونها ، وكان ذلك العمل وجميع جهود آل المهلب ممهدة للقيام بفتوح كبيرة فى بلاد الترك ، وراء النهر . ثم عزله الحجاج عام ٨٥ هـ ، وعين فى مكانه « قتيبة بن مسلم الباهلى » ــ وهو القائد الكبير الذى سيتم على يديه فتح بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين ، فى عهد الوليد بن عبد الملك .

وأما عن سجستان : فإن الحجاج كان ــ حين ولى على المشرق كله فى عام ٧٨ هـ ــ ولى عليها « عبيد الله بن أبى بكرة » . وفى العام التالى ٧٩ هـ ، وجه عبيد الله هذا بجيش لغزو « رتبيل » – وفى رواية « زنبيل » – ملك سجستان ، لأنه نقض عهد الصلح الذى كان بينه وبين المسلمين ، فتوجه القائد وغلب على البلاد ، وأوغل فيها حتى صار غير بعيد من العاصمة ، لكن العدو أخذ على المسلمين العقاب والشعاب ، وحاصرهم . فرأى ابن أبى بكرة أن يصالح رتبيل على مبلغ من المال ، ويخلى بينه وبين الخروج ، ولكن جنده عارضوا الصلح ، وأبَوا إلا أن يقاتلوا حتى الشهادة ، فقاتلوا ، حتى استشهد أكثرهم ونجا أقلهم .

فلما بلغ ذلك الحجاج ، صمم على أن يجهز جيشاً كثيفاً ويبعثه ليؤدب

« رتبيل » ، ويأخذ بثأر المسلمين ، وأرسل إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى ذلك ، فأذِنَ له ، فجهز جيشاً من أربعين ألفاً : عشرين ألفاً من الكوفة ، وعشرين ألفاً من البصرة ، وأعدهم بكل ما يحتاجون إليه ، وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع ، والسلاح الكامل ، فكان هذا الجيش يدعى « جيش الطواويس » لكامل رونقه وحُسن عدته . وولى الحجاج قائدًا على هذا الجيش « عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندى » . فخرج هذا الجيش إلى مقصده فى عام ٨٠ هـ .

وصل الجيش إلى بلاد « رتبيل » ، فأرسل هذا يعتذر ويسأل الصلح ، فلم يقبل منه . وسار عبد الرحمٰن فى غزوه لتلك البلاد وفق خطة منظمة ، ومتخذًا إجراءات الاحتياط : فكلما حوى بلدًا بعث إليه عاملاً ، وبعث معه أعواناً ، ووضع البُرُدَ (١) فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا حاز من بلاد رتبيل أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من المغانم ، حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل ، وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، وهكذا حتى يتم فتح البلاد . وكتب إلى الحجاج يعلمه بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، ويخبره برأيه هذا .

فكتب إليه الحجاج : « أما بعد ، فإن كتابك أتانى ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتابُ امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة ، قد صانع عدوًّا قليلًا ذليلًا قد أصابوا من المسلمين جندًا كان بلاؤهم حسناً ، وغناؤهم فى الإسلام عظيماً ، وإنى لم أعدد رأيك رأى مكيدة ، ولكن رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك ، فامضِ لما أمرتك به من الوغول فى

---

(١) جمع « بريد » .

أرضهم » . وفى كتاب تالٍ أمره بالوغول ، وإلا فإن أمير الناس أخوه إسحاق ابن محمد ، بدلا منه .

أما بلاد ما وراء النهر ، وهى التى تقع شمال نهر جيحون (نهر آموداريا الآن) فكان بطل فتح هذا الإقليم هو القائد العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أشار على الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة ٨٥ هـ — ٧٠٤ م بتعيين قتيبة هذا والياً على خراسان ، فاتخذ قتيبة مدينة « مرو » قاعدة له ، قاد منها فى نحو عشر سنوات عددًا من الحملات الحربية الموفقة فى خراسان وفيما وراء النهر .

ويرى بعض المؤرخين أن إقليم ماوراء النهر كان سكانه أتراكاً ، ويرى البعض الآخر أن سكانه من الإيرانيين ، والواقع أن سكان هذا الإقليم كانوا من العناصر الإيرانية ومن الترك الذين طبعوا بطابع المدنية الإيرانية ، كذلك لم يكن هذا الإقليم موحد السلطة ، فكان مقسماً إلى مناطق ، كل منطقة قائمة بذاتها .

وكان من حسنات الحجاج أن حمل أهل العراق على الاشتراك فى فتح تلك البلاد الشرقية تحت قيادة قتيبة . ويذكر البلاذرى والطبرى أنه كان فى جيش قتيبة أربعون ألف مقاتل عربى من البصرة ، وسبعة آلاف من الكوفة ، وسبعة آلاف من الموالى . كذلك يذكر المؤرخون أنه وصل إلى خراسان وما وراءها أقدام العرب الفاتحين فى حروبهم الأولى أيام عثمان بن عفان ، ولكن المسألة لم تتعد حد الغارة والغزو ، إذ ما لبثت الفتوحات أن توقفت بعد قيام الفتنة فى خلافة عثمان ، أما الخلفاء الأمويون والوليد فقد استأنفوا الحروب فى تلك الأصقاع النائية بغرض الفتح المنظم ونشر الإسلام ، وإعلاء كلمة العرب ، وتوسيع حدود الدولة العربية ونشر تقاليدها ، وحماية حدود دولة العرب ، ورد هجمات المعتدين عليها ، فضلا عن استثمار البلاد . وتمكن قتيبة بن مسلم الباهلى بعد عدة حملات من استرجاع طخارستان وعاصمتها « بلخ » فى

الشمال الشرقى من خراسان وكان ذلك فى سنة ٨٦ هـ ـــ ٧٠٥ م ، وكان ممن سبى قتيبة فى بلخ امرأة برمك ، أبى خالد بن برمك ، وكان برمك ـــ جد البرامكة الذين نبغوا فى العصر العباسى ـــ سادناً لمعبد النوبهار ، أكبر بيوت النار المجوسية زمن الملوك الساسانيين .

وكان قتيبة يشجع جنده على الإقدام فى الحرب والفتح فى تلك البلاد القاصية الضروس ، ويمكننا أن نستبين الدوافع التى جعلت المسلمين يقدمون على مثل تلك الفتوحات العظيمة مما نقله المؤرخ الطبرى عن قتيبة حين استعرض جنده فى خراسان ليحثهم على الجهاد فقال : « فخطب الناس قتيبة وحثهم على الجهاد وقال : إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً ، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال : (ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله) ثم أخبر عمَّن قتل فى سبيله أنه حى مرزوق فقال : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون) » (١) .

وبعد أن ثبت قتيبة أقدام العرب فى خراسان وقدم له عظماؤها ودهاقينها الولاء والطاعة ، عبر قتيبة نهر جيحون فتلقاه ملك الصغانيان فيما وراء النهر ، وأهدى إليه كثيرًا من الهدايا ، وسلم إليه بلاده ثم قفل قتيبة راجعاً إلى مرو ، وتقدم جنده فسبقهم إليها .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق والمشرق كله ، يشرف على

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص٥٩ .

الفتوح أولا بأول ، ويدلى برأيه فى كل الأمور التى تحتاج إلى رأى ، ويشجع قتيبة إذا وجد صعوبة ومقاومة من أهل هذه البلاد النائية ، ويلومه إذا علم أنه لا يتصرف كما يجب . ويذكر الطبرى أنه لما عاد قتيبة إلى مرو تاركاً جنده وراءه كتب إليه الحجاج يلومه ويعجز رأيه فى تخليفه الجند ، كتب إليه : « إذا غزوت فكن فى مقدم الناس ، وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم » (١) .

ثم جهز قتيبة حملة ثانية وعبر نهر جيحون وغزا بيكند فى سنة ٨٧ هـ ، فتجمع لمحاربته التركمان وقطعوا عليه خط الرجعة ، وانقطعت أخباره عن الحجاج ، ولم يصل منه رسول مدة شهرين ، فأشفق الحجاج على الجُند وأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد طالبين من الله أن ينصرهم على أعدائهم ، وبعد شهرين جاء الخبر من قتيبة يعلن نصره المبين ، وأصاب المسلمون من بيكند من الذهب والفضة مالا يحصى ، ولم يظفر المسلمون فى خراسان بغنائم مثل تلك التى ظفروا بها فى بيكند ، ثم عاد المسلمون مع قائدهم إلى مرو ، واشتروا السلاح والخيل ، وجلبت لهم الدواب ، وتنافسوا فى حُسن الهيئة والعدة ، ولما أقبل الربيع عبر قتيبة النهر مع جنده وخرج لغزو بخارى ، وكان قتيبة يقود حملاته إذا أقبل الربيع إلى ما وراء نهر جيحون ثم ينسحب فى الخريف إلى مدينة مرو قاعدة خراسان حيث يقضى أشهر الشتاء .

عبر قتيبة نهر جيحون لفتح بخارى ، وكانت من أكبر بلاد الصغد ، ولما قاومت تركها قتيبة ، فكتب إليه الحجاج يأمره أن يصورها له ، فبعث إليه قتيبة بصورتها ، وكان أن رد الحجاج يلوم قتيبة ويأمره بتجديد الهجوم من أمكنة حددها له ، ففعل قتيبة واستولى عليها بمساعدة بنى تميم ، وأبدت نساء العرب شجاعة فائقة فى إلهاب حماس الرجال ، فإنهن ضَرَبْنَ وجوه الخيل وبَكَيْنَ حتى كر الناس راجعين إلى الحرب . وكان فتح بخارى على إثر سلسلة

(١) الطبرى : تاريخ ج ٨ ص ٦٠ .

من الحملات المتتابعة ، وألزم قتيبة أهل بخارى بعد فتحها لأول مرة ـــ كما ألزم غيرها من أهالى البلاد المفتوحة ـــ أن يمدوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية تتراوح عادة بين ١٠,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية .

وأسس قتيبة فى بخارى جامعاً عرف باسم « جامع قتيبة » لايزال باقياً إلى يومنا هذا ، كذلك دمر العرب بيت النار فى بخارى ، وتقدمت جيوش ابن باهلة فى بلاد الصغد ، وأخذ قتيبة يفتتح مدنها المختلفة ، ففتح سمرقند ، وكذلك فتح خوارزم (المعروفة باسم خيوا) ، وهناك وصلته الأخبار بأن أهل سمرقند انتقضوا وثاروا ، فذهب قتيبة إليهم ونصب حول مدينتهم المجانيق . وحدث بين العرب وبين أهل سمرقند قتال شديد يشهد باستماتة العرب فى جهادهم ، ثم أعز الله قتيبة بفتح سمرقند فدخلها ظافرًا منتصرًا وفرض على أهلها غرامة كبيرة . وكانت سمرقند مملوءة بالمعابد ، وكانت الأعاجم تقول إن من ينتهك حرمتها يهلك ، فلما أحرقها قتيبة ولم ينله أذى أسلم منهم خلق كثير . وكان لقتيبة الفضل فى إنشاء أول مسجد فى سمرقند .

وقد وطد قتيبة مركزه فى بلاد ما وراء النهر بهذه الانتصارات والفتوح الباهرة . وعانت بلاد الصغد كثيرًا من المحن من جراء هذه الحروب المستمرة ، حتى إن أحد شعراء ذلك الزمان أشاد بفتوحات قتيبة فى بلاد الصغد قائلًا :

باهليٌّ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كُنَّ سُودا
دَوَّخَ الصغد بالكتائب حتى ... ترك الصغد بالعراء قعودًا (١)

وانتدب قتيبة لهذه البلاد المفتوحة حكاماً من العرب لإدارة الشئون الحربية وجباية الأموال ، أما الإدارة المدنية فقد تركها إلى حكام من أهل البلاد نفسها .

---

(١) انظر : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ص ٢٣٦ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

ثم غزا قتيبة الأقاليم المحيطة بنهر سيحون ، وخاصة الشاش (طشقند اليوم) وفرغانة ، وذلك بين سنتى ٩٤ ــ ٩٦ هـ (٧١٣ ــ ٧١٥ م) فبلغ خجندة وكاشان مدينتى فرغانة .

وكان نهر سيحون ، وليس نهر جيحون ، هو الحد الطبيعى الذى يفصل بين إيران وطوران ، أى بين الشعوب الناطقة بالإيرانية والشعوب الناطقة بالتركية والمغولية ، ولذا فإن عبور قتيبة لنهر سيحون كان أول تَحَدٍّ مباشر من العرب للشعوب الطورانية والمغولية .

وكان قتيبة يغزو الشاش فى سنة ٩٥ هـ حين أتاه خبر موت الحجاج ، فَغَمَّه ذلك وقفل راجعاً إلى مرو ، وتمثل قائلا :

فَإِنْ تَحْيَ لا أملل حياتى ، وإن تَمُتْ

فما فى حياةٍ يَعْدَ موتك طائلُ

لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يرد أن تثبط عزيمة ذلك البطل العربى الذى ملأت شجاعته صفحات مشرفة للبطولة العربية ، وللعزيمة التى تتحدى اليأس ، والتى لا تعرف الكلل أو الملل ، فكتب إليه الخليفة يقول : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك ، وصانع بك كالذى يجب لك فألمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تُغَيِّبْ عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت به » (١) .

ولم يخيبْ قتيبة ظن الخليفة ، فشمر عن ساعد الجد والجهاد ، واستمر فى حروبه ففتح كاشغر فى التركستان الصينية ، وكانت أقرب المدن إلى الصين ، وذلك فى سنة ٩٦ هـ ــ ٧١٥ م ، وأرسل إلى إمبراطور الصين « يوانغ

(١) الطبرى : تاريخ ، ج ٨ ص٩٦ .

جونغ » وفدًا مع رسالة يطلب منه الطاعة والجزية (١). وذكرت المصادر العربية أن ملك الصين قال لهبيرة بن المُشَمْرج الكلابي زعيم الوفد العربي « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه » فأجاب هبيرة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل .. فلسنا نكرهه ، ولا نخافه » . قال : « فما الذي يرضي صاحبك ؟ » قال : « إنه قد حلف أنْ لاينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » . قال : « فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها » فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ووطيء التراب (٢) .

والواقع أن مجهودات قتيبة بن مسلم الباهلي العظيمة ، ومَنْ جاء بعده من القواد العرب زمن الأمويين جعلت إقليم ما وراء النهر يندمج بدولة العرب ، وكان ذلك فاتحة لاتصال العالم الإسلامي بأواسط آسيا وبالجنس التركي الذي أتيح له بعد ذلك أن يكون ذا شأن عظيم في شئون الدولة الإسلامية ، وخاصة في العصر العباسي . كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجهوداته الفضل في أن تصبح بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ولنشر الإسلام في آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان .

كذلك زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة الإسلامية

---

(١) الأستاذ الصيني المسلم « بدر الدين حي الصيني » : العلاقات بين العرب والصين (مكتبة النهضة المصرية — الطبعة الأولى ١٩٥٠) ص ٢٧ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١ .

وبين الصين فى أشكالها المختلفة ، سواء أكان سياسيًّا أم تجاريًّا أم دينيًّا أم فنيًّا أم ثقافيًّا .

والمعروف أن العرب حين فتحوا فرغانة فى إقليم ما وراء النهر وجدوا فيها شيئاً كثيرًا من بدائع التحف الصينية ، ولا غرو ، فإن هذه الأقاليم تقع على مقربة من حدود الصين ، وكان أهلها متصلين بالصين منذ العصور القديمة ، كما أن صناعاً من الصينيين كانوا بين الأسرى الذين وقعوا فى يد العرب حين فتحوا تلك الأصقاع (١) .

وقد ذكرت المراجع التاريخية أن قتيبة بن مسلم الباهلى رضى بهدية إمبراطور الصين ، إذ وصل إليه حينئذ خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان بن عبد الملك .

وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة وغيره من الزعماء الذين استشارهم الخليفة الوليد فى عزله عن ولاية العهد ، فوافقوا الخليفة على عزله ، وقد تحقق ظن قتيبة ، إذا أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك يعزل قتيبة ، ومالبث قتيبة أن قُتل .

وتوقفت فتوحات العرب إلى الشرق الأقصى بعد وفاة الوليد بن عبد الملك ، وبعد مقتل قتيبة ، وتخلصت الصين بذلك من غزو العرب لها ، لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الإسلامى الذى كان ينتشر بسرعة إلى أواسط آسيا مع الفتوحات ، ومن الراجح أن بعض أهالى تركستان الصينية قد اعتنقوا الإسلام زمن قتيبة .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ١٩ « القاهرة ١٩٤١ » .

الفتـــح الإســـلامى للهنـــد

كان العرب وحدهم فيما قبل الإسلام ، واسطة مقايضات التجارة الهندية ، ماورد منها برًّا ، عن طريق بلاد فارس ، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانى الشام ، أو بحرًا ، عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فحمله اليمنيون من أبناء سبأ القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين فى رحلة الشتاء ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثره فى رحلة الصيف إلى بلاد الشام ، ومنه ماكان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير .

هكذا كان العرب فى القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد فى غربها فاختلطوا بأهلها ، ولقوا فى الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ، ليعودوا إلى بلادهم فى كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل ، ومالهم من غرائب العادات والمعتقدات ، ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ، ثم سيوفها التى اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها ومابها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية فى أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها التى كانت على اتصال وثيق بالهند ، ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها ، وقد تخرج على أيدى الهنود بمدرسة جند يسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بين كَلَدة الثقفى ، طبيب العرب قبل الإسلام ،

والذى قام على علاج الناس بفارس ، وطبَّ بعض سراتها فأعطاه مالا وجارية ، هى سمية أم زياد بن أبيه [1] .

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا فى بلاد فارس المترامية الأطراف ، وطرقوا أبواب بلاد ماوراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة ، وقويت دعائم الخلافة الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، بأمر القسم الشرقى من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان محبًّا للفتح ، ميالًا إلى التوسع ، فوجه جند المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر ، فدخلت بخارى وسمرقند وخجند وفرغانة ، حتى وصلت إلى قشغر على حدود الصين .

وكان من الطبيعى ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند ، باب الهند ذات الثراء الطائل ، الذى أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية .

هذا وكان العرب ، أيام عمر ، قد خرجوا ، قبل فتحهم لفارس ، فى حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراجى الحالية وبمباى ، ولكن ثانى الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين ، الحَكَم بن أبى العاص ، عن المضى فى هذا الأمر ، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين ، شديد الحذر من « حمل الدود على العود » على حد قوله .

على أن الحَكَم شجعه ما غنمه فى غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلباً للمزيد من الأسلاب ، وللتمكن من الاطلاع على أحوال تلك النواحى ، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى دَيْبُل عند مصب السند ، فى حين قصد هو إلى « بروج » .

---

(١) ضُحى الإسلام لأحمد أمين ــ القاهرة ١٩٣٨ أول ص ٢٦٦ .

فلما فتح المسلمون العراق وفارس ، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق عبد الله بن عامر ، أن يوجه إلى ثغور الهند من يعلمه عنها ، فوجه إليها حكيم بن جَبَلة العبدى ، الذى بعث مخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها (١).

ولم تنته خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحوا كابل ، وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوباً حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم فيقان السندى ليجيء المهلب بن أبى صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو بنة والأهوار (لاهور) بين الملتان وكانه ، وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها ، فعادوا إلى حصر جهودهم فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطىء .

وبعث الحجاج حين ولى العراق ، بسعيد بن أسلم إلى مكران ، فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ، إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين فى هذه الجهات ، وكانا قد لقيا عند داهر ، ملك السند البرهمى ، كل ترحيب حين لجأا إليه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه فى بعض حروبه أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التى غدت ملجأً للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه إلى طلبه ، حتى إذا ماتعرض قراصنة من ميد الديبل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك ، ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة ، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج ، حين ألح عليه فى تخليص نساء المسلمين من الأسر بعدم قدرته على لصوص البحر هؤلاء ، فسير

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٨ .

الحاكم الثقفى من فوره إلى ديبل عبيد الله بن نبهان فى قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل ، ولقى بديل بن طهفة البجلى نفس المصير حين خرج من عمان بأمر الحجاج للغرض ذاته .

هنالك تبدى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها ، إنْ هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السند ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة .

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميرًا للحملة السندية ، وطفق قائد هذه الحملة — وكان يقيم إذ ذاك بشيراز — يعد لها العدة طوال شهور ستة . وعنى الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ماقد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال ، بل وكذلك بالخل (١) .

وأقبل محمد بن القاسم — وهو دون العشرين من عمره — يغزو بلادًا مترامية الأطراف ، متسعة الأرجاء ، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء ، وأصحاب حضارة ومدنية عريضة ، وهو فى قلة من الجند ، إلى جانب كثافة جندهم ، وضآلة من الموارد بالقياس إلى ماكان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبل فى اثنى عشر ألفاً من جند الشام والعراق ، وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم ، أما عتادهم الحربى — وكان قد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران — فقد اتخذ طريقه بحرًا ، فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩ هـ — ٧٠٧ م .

(١) كان الخل يعالج بأن ينقع فيه القطن المحلوج فى الظل حتى يتشربه ويجف ، فإذا أريد استخراج مابه من الخل ثانية نقع فى الماء من جديد فيتحلل فيه .

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط) ، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ماكانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط ، إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جَلَدِهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها ، وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال .

ورابط الغُزاة بخنادقهم بظاهر ديبل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم ، حتى إذا مانصب محمد ابن القاسم منجانيقه الكبير « العروس » وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فدق بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه .. استولى الرعب والفزع على السكان ، وشاعت الفوضى بينهم ، ليقتحم المسلمون المدينةعليهم من بعد ذلك ، واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان .

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجدًا ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه فبلغ مدينة نيرون [1] على الضفة الغربية للسند ، فما عتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عند إراقة الدماء أن أبرزوا له عهدًا بالأمان كانوا قد حصلوا

(١) تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلاً من مكران ، وتعرف أيضا باسم نيرانكوت ، وموقعها حيدرآباد السند الحالية . ويغلط بعض الكتّاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءً وينسبون إليها على ذلك العلامة البيرونى ، وهو خطأ شنيع فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى بإقليم خوارزم .

عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجّاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطئ السند الشرقى حيث يرابط عدوه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ليفاجئ عدوه بعبور النهر إليه ليلاً ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد كَرَّةً أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقتل داهر ، وكان يمتطى فيلاً اشتد به العطش فثار على فيّاله واندفع إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلاً (١) .

وبلغ الخبر رانى باى ، وكانت أختاً لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفاً من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ، ومن النفط المشتعل ، وقطع الصخر ، فلم يُجْدِهِم ذلك كله نفعاً ، هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى النيران فلا يقعن بأيدى الغزاة .

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر وكنوزه ، ووقع فى أسره خلق كثير ، كان من بينه بعض الأميرات ، فبعث بهم جميعاً إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا مدينة

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، طبع ليدن عام ١٨٨٣ ــ ثان ص ٣٤٦ .

برهمنآباد وكان قد فر إليها ابن لداهر يدعى جاى سنك ، بعد سقوط راور ، فأحكم من تحصينها وسد منافذها . واقتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة ، فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالاً مستجيرًا بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهى وبعض بناته ، إذ أذهلتهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذى سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك ، وأطلق لهم حرية العبادة ، على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا مايفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر .

وبلغ الجيش العربى الرور (١) عاصمة داهر ، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد ، وراح — فى سبيل حث قومه على المقاومة — يلقى فى روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير . واستمات الهنادكة فعلاً فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعاً شديدًا ، حتى إذا مافطن محمد ابن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادى أرملة داهر ، وكان قد بنى بها ، فنادت فى قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم ، فانهارت قواهم على إثر ذلك بعدما عانوا طويلا من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم .

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس ، رافد السند ، إلى مدينة الملتان ، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه ، فامتنعت عليهم شهورًا ستة نفدت فيها مؤنهم ، فطعموا الحمر حتى أتاهم رجل مستأمن دلّهم على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان فقطعوه عليهم ، فنزلوا إلى قتالهم فى معركة شديدة

(١) تعرف هذه المدينة أيضاً باسم آلولى .

استمرت أياماً سبعة ، اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها ، واستولوا على المدينة كلها .

وفى الملتان آخر حصون السنديين الكبرى أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميدوالجات ، الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربى وكرمه وكَفِّه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعاً ولاءهم له ، فأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقرباً منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة ، كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادئ الأمر ، فحَمَل إلى دمشق عشرين ومائة ألف ألف درهم ، دون أن يُضار الأهلون فى أموالهم ، أو يفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه (١) .

وهكذا كان لحَمِيد مَسْلَكِ ابن القاسم مع الأهلين فى حُسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، وإطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم ، مما ساعد كثيرًا على توطيد مركز المسلمين هناك (٢) .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحَجَّاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج ، أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هنالك بدأ محمد بن القاسم أولا بإيفاد بعثة من رجاله إلى صاحب قنوج

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى ، طبع بولاق مجلد ٤ ص ٢٠٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١٠ .

تدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، حتى إذا مارد الملك الوفد ردًّا غير كريم ، أخذ الفاتح العربى يعد العدة لغزو عدوه ، فجهز لذلك جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان ، وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى وافته الرسل تنبئه بوفاة الحجاج ، ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده ، وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحَجَّاج وينقم عليه ، لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا ، لم يمنع موت الوليد ــ قبل أن يتم هذا الأمر ــ سليمان من إنزال نقمته فى عنف بكل مَنْ كان يَمُتُّ للحجَّاج بِصِلَةٍ .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة ، بل ويرفض المسير إليه مستقلا بما فتح من بلدان ، وما استولى عليه من أراضٍ ، وهو الذى استطاع أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثاً ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألّا يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين ، برغم توجس الشر منه .

فَحُمِلَ مُقَيَّدًا بالأغلال حتى بلغ « باسط » فلقى بها من العذاب النكر على أيدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا برأسه إلى دمشق .

وترد بعض الروايات غضب الخليفة الأموى على محمد بن القاسم إلى عبثه بسبى الهند حينما بعث به إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابنتان لداهر ، هما بارمل ديوا ، وسوراج ديوا ، فما إن اختلتا بسليمان حتى صرحتا له باعتداء الفاتح العربى عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر ، وأمر بقتل ابن القاسم وأن يُحمل إليه فى جلد ثور محشو بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن

الأميرتين حين عُرض عليهما رأس القائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقاتل أبيهما ، فَسِيقَتَا إلى حتفهما بافترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شبه القارة الهندية ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية ، فى حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها ، يُضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلا عن جدبها النسبى وضعف خراجها ، كانت لاتزال محوطة فى الشمال والشرق بإمارات قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فى الغالب عمَّا استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شغل أكثر الولاة المسلمين فى السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدى فى المضى فيما بدأه محمد ابن القاسم من الفتوح ، وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند ، حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك ، من النزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فى أراضى الدولة الإسلامية الواسعة ـــ سواء فى أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ـــ إلا واعتركوا فيما بينهم بها ، وزاد من تفاقم الأحوال بالسند نفوذ الخوارج والشيعة والقرامطة إليه ، فانكمشت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله ، فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله أنه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد بن أبى كبشة السكسكى من قبل سليمان بن عبد الملك ، ولكنه مالبث أن قَضَى على إثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على إثر هذا الحادث إلى

أن انتهز جاى سنك ابن داهر المقتول هذه الفرصة فانقض على مدينة برهمناباد فاستخلصها لنفسه ، فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولى السند أن يستردها منه ، حتى إذا مابعث الخليفة عمر بن عبد العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلى — أخى قتيبة — إلى هذه البلاد أوصاه بالرفق بأهلها ، والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، فصادفه التوفيق والنجاح فيما نُدب له ، حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم وتبديدهم لأموال المسلمين أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ، لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهد هشام بن عبد الملك إلى جنيد بن عبد الرحمٰن المرى ، وكان حاكماً حازماً استرد إمارة برهمناباد من أيدى جاى سنك بعد أن قتله ، كما سيرجنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والكجرات عند شرق السند وجنوبه الشرقى ، حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتبى أضاع بتردده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحكم بن عوانة وفى صحبته عمرو بن محمد بن القاسم الذى انفرد بالحكم من بعده ، وفى عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ، غير بعيد من برهمناباد ، وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند . هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم فى الحزم والعدل ، وأحيا سيرته فى التسامح الدينى وإطلاق حرية العبادة للهنادكة .

واقتحم السند — على يزيد بن غرار ، خليفة عمرو هناك — ثائرٌ من

الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جهور الكـ
فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠ هـ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية ، فعهد السفاح أول خلفائهم
الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى ، الذى بعث بدوره إلى ا
بعبد الرحمٰن بن أبى مسلم العبدى ليفشل فى طرد جهور بن منصور الـ
منها ويلاقى حتفه على يديه ، حتى وفد موسى بن كعب التميمى ، فـ
بالثائر الكلبى يطارده إلى أن هلك فى الصحراء عطشا ، فى حين لقى أخوه
مقتله على يديه . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة
العباس ، ويعمل على التفافهم حوله ، فجدد بناء المنصورة ، وأقام بها مسـ
جديدًا ، وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخلف المنصور السفاح ، فبعث إلى السند بعمر بن حفص ، وكان
الوالى الجديد الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه على تشيع وثيق للعلويين ،
الجهر ، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هرباً من ،
العباسيين ، فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند ، ذلك أن عبد
ابن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستترًا فى
التجار [1] ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمر
فنال عنده كل حظوة ورعاية ، ولكن كان أنْ خاف عمر بطش الخليفة ، فأ
العلوى مع أتباعه عند أمير هندوكى فى أحد البلاد المجاورة ، موالياً رعا
والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشر على هذا الحال حتى .
الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندو
ومطاردة الشريف العلوى ، وما إن أحس الخليفة مماطلة عمر فى تنفيذ ما أ
به حتى نقله إلى شمال إفريقيا ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو التغلبى .

---

(١) تاريخ الطبرى ، طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ المجلد التاسع ، حوادث سنة ١٥١ من ٢٧٩ ـــ ٨١

الفصل الخامس

الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي والأندلسي

الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى

— ١ —

كان الجيش الإسلامى قد تقدم بعد فتح مصر فى الشمال الإفريقى فاتحًا وناشرًا للإسلام وللغة العربية ، فلما انتهى الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، عزم على استئناف فتح المغرب واسترداد المدن التى استردها الرومان فى أثناء الفتنة ، وكان أن أعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر ثانياً سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) فاستأنف عمرو فتوحه للمغرب ، ولكن شيخوخته وكثرة المشاكل التى واجهته فى أثناء قدومه إلى مصر حالت بينه وبين قيادة الجيوش ، فاكتفى بإرسال فرق من الفدائيين للإغارة والاستحواذ على الغنائم ، وبعث على رأس هؤلاء عقبة بن نافع ، فأمكنه أن يسترد بلدة غدامس فى سنة ٤٢ هـ . ثم توغل فى الصحراء التى تفصل تونس عن السودان ، فأخضع بعض القبائل ، وغنم غنائم تفوق الوصف ، عاد بعدها للإقامة ببرقة ، ولم يلبث عمرو بن العاص أن توفى فى سنة ٤٤ هجرية .

ولما علم معاوية بن أبى سفيان بوفاة عمرو كان أول ما أقدم عليه فصل ولاية إفريقية عن مصر ، ليكون للخليفة حق تعيين واليها من قبله ، لأنه لم يكن راضياً عن هذه السلطات الواسعة التى منحت حاكم مصر الحق المطلق فى تعيين والٍ لإفريقية وعزله . ومنذ ذلك الوقت أصبح المغرب ولاية مستقلة ، شأنها كشأن مصر ، وكان أول والٍ عينه عليها ابن أبى سفيان هو « معاوية بن خديج التجيبى » أحد كبار أنصاره ، ومن الذين مارسوا الحرب من قبل فى ميادين

المغرب ، ثم زوده بجيش بلغ عدده عشرة آلاف جندى ، من بينهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الملك بن مروان ، وأمره بالزحف فورًا نحو المغرب .

وصل ابن خديج إلى مصر فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) ولم يشأ أن يضيع الوقت سُدًى ، بل أسرع بالزحف نحو برقة ، ثم خلفها متجهاً إلى مدينة قرطاجنة التى قيل له إن الأعداء قد تكتلوا فيها لمواجهته ، ولم يكد يحط رحاله فى سهل تونس فى مكان « قَمُونِيَة » جنوب قرطاجنة حتى جاءه الخبر بأن الروم قد لبسوا عدة الحروب استعدادًا للقتال ، فأسرع نحوهم ، ونشر مضاربه بالقرب من معسكرهم فى مكان يقال له « القرن » ، وبدأ المسلمون يثون الذعر فى قلوب الروم بتكبيراتهم التى كانت تصم الأذان ، ويتردد صداها فى جوف الصحراء فتثير فيهم الرعب ، مما حطم أعصابهم ، وجعلهم يفرون نحو بلدة « سوسة » عندما شاهدوا الفرقة الاستطلاعية التى بعث بها ابن خديج بقيادة عبد الملك بن الزبير ، ولكن سرعان ما لحقهم ابن الزبير ، ودارت بينه وبينهم معارك خفيفة أقلعوا بعدها إلى جزيرة صقلية هاربين .

ودخل المسلمون مدينة سوسة مُهَلِّلين مُكبرين ، ومن هناك بعث ابن خديج بلواء من الفرسان لاحتلال بلدة جلولاء ، فاستولى عليها بعد حصار وقتال سرعان ماتلاشى أمام عزيمة المهاجمين ، على حين سار ابن خديج بنفسه نحو « بنزرت » فأمكنه احتلالها .

بعد هذه الانتصارات والمكاسب رجع ابن خديج إلى مكان القرن ليأخذ لجنده شيئا من راحة ، وحتى يوزع عليهم الفيء والغنائم ، ثم قام بحفر بعض الآبار لتوفير المياه اللازمة لجيشه ، وبعد أن فرغ من ذلك جاءه الخبر بتعيينه حاكماً على مصر ، فانصرف عن إفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر ، ووصل إلى مصرفى عام ٤٧ هجرية بعد أن عين عقبة بن نافع خلفاً له ، وأوصاه باستئناف الفتح وإعلاء كلمة الله فى أرض المغرب .

ورأى عقبة بعد أن سلّم له ابن خديج مقاليد إفريقية أن يشرع فورًا فى تنفيذ وصيته ، ولذلك جهز جيشه للغزو ، وانطلق به فى خلال عام ٤٩ هجرية (٦٦٩ م) يدك معاقل البيزنطيين ، واستطاع استرداد فزان وغدامس ، ثم انتقل إلى إقليم « قمونية » ليستعد للجولة الثانية ، وبينما هو آخذ فى الاستعداد وجد أنه من الأصوب أن يختط لنفسه خطة يسير عليها فى الغزو تمكن للمسلمين فى المغرب ، ولكيلا تكون غزواتهم بعد ذلك لمجرد جلب الغنائم والسبايا ثم العودة ثانياً إلى مصر ، بل لكى تكون هناك فتوح منظمة يستقرون بعدها فى البلاد ، وبذلك يستطيعون أن ينشروا الإسلام على أوسع نطاق ، لأنه كان رجلاً شديد الإيمان ، تميل نفسه لنشر الدين ، لالمجرد الفتوح والانتصارات ، وما وراء ذلك من مكاسب وغنائم ، ولذلك عزم على أن يتخذ له قاعدة ارتكاز فى قلب البلاد ، يخرج منها المسلمون بحملاتهم ، ويتخذونها عاصمة لهم ومركزًا يمدهم دائماً بالإمدادات .

واختار عقبة بن نافع لإقامة هذه القاعدة قطعة من السهل الفسيح من إقليم قمونية جنوب قرطاجنة ، وهى تبعد عن مدينة تونس الحالية بحوالى مائة واثنى عشر ميلا ، وجمع أركان حربه وأطلعهم على ما استقر رأيه عليه ، ثم استطرد قائلا لهم : « وأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرًا ، وتكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر » .

وكان اختيار عقبة لهذا المكان اختيارًا موفقاً من الناحيتين : الجغرافية والاستراتيجية ، فهو أولا بعيد عن الساحل ، لا يتعرض فيه المسلمون لتهديدات الأساطيل الرومية ، وثانياً يستطيعون منه مراقبة أعدائهم ، لأنه ملتقى للطرق المتجهة نحو الشرق والغرب والجنوب .

وبدأ عقبة فى بناء هذه المدينة التى عرفت فى التاريخ بمدينة القيروان فى عام ٤٩ هـ ، وانتهى من بنائها فى سنة ٥٢ هـ (٦٧٢ م) وكانت تضم دار

الإمارة والمسجد الجامع ، وعلى مر الأيام عمرت بكثير من الدور والمساجد والمنشئات العسكرية ، واجتذبت المدينة عددًا كبيرًا من البربر ، فأعلنوا إسلامهم وكونوا جماعة إسلامية بربرية ظلت تنمو وتكبر حتى أصبح أفرادها ركناً حاسماً فى تحويل المغرب إلى الإسلام .

وكان عقبة فى أثناء قيامه ببناء القيروان لايفتأ يرسل الكتائب لإخضاع ماحوله من القبائل المتمردة ، وكان نتيجة لذلك أن بدأ الأهالى يشعرون بقوة المسلمين ، فأعلنوا إسلامهم ، وأخذوا ينتظمون فى جيوش المسلمين ، وأصبحوا لهم عونًا كبيرًا فى أثناء تمام فتحهم للمغرب .

وما كاد عقبة يفرغ من تنظيم مدينته وتجهيز جيشه حتى قرر فى أواخر عام ٥٥ هجرية (٦٧٤ م) الخروج إلى الغزو الواسع الكبير ليدين المغرب كله للراية العربية الإسلامية ، وبينما كان يأخذ الأهبة لذلك إذ دخل عليه وهو فى المسجد الأعظم رسول من قبل الخليفة معاوية يبلغه عن خبر عزله عن الولاية ، وتعيين أبى المهاجر دينار خلفاً له ، وهو من موالى مسلمة بن مخلد الأنصارى حاكم مصر وقت ذاك ، نتيجة للوشايات التى أقدم عليها مسلمة الذى كان يُكِنُّ لعقبة شيئاً من الغيرة ، والذى كان يطمع فى ضم ولاية إفريقية لسيطرته لكثرة خيراتها[٩] .

وخرج عقبة من إفريقية بعد أن سلم مقاليد الولاية لأبى المهاجر ، الذى قيل إنه أهان عقبة بإيعاز من سيده مسلمة ، فلما وصل عقبة إلى دمشق شكا إلى معاوية مافعله معه خلفه وعاتبه على عزله قائلا له : « فتحت البلاد ودانت لى ، وبنيت المنازل ، واتخذت مسجدًا للجماعة ، وسكنت الناس ، ثم أرسلت عبدًا لأنصارى فأساء عزلى » .

وقد اعتذر له معاوية عن عزله ووعده برده إلى عمله .

ولكن عقبة ظل مقيماً بدمشق ينتظر أن يفى معاوية بوعده له ليرده ثانياً إلى ولاية إفريقية إلى أن مات معاوية وخلفه ابنه يزيد ، فعزل هذا أبا المهاجر « دينارًا » وأعاد عقبة على المغرب للمرة الثانية ، كما سنفصله فى حينه .

ولقد ذكرنا أن مسلمة نجح فى عزل عقبة وتعيين مولاه أبى المهاجر خلفاً له ، وكان أبو المهاجر من دهاة السياسة ، وهو فى الوقت نفسه محب للغزو ، فما كاد يطمئن على موقفه حتى عزم على الخروج إلى الحرب ومهاجمة القبائل المتمردة فى مواطنها الحصينة ، ورأى أن يصانع قبائل البرانس المتحضرة الموالين للروم ليضمهم تحت لوائه ، أو على الأقل ليضمن عدم انحيازهم لأعدائه ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً كبيرًا ، فدخل فى طاعة المسلمين زعيم هؤلاء القبائل « كسيلة بن لزم الأوربى » وأعلن إسلامه هو ورجاله ، وانطلقوا جميعاً مع المسلمين لدك حصن الرومان ، حتى انتهى بهم المطاف فى مدينة تلمسان .

ثم عاد أبو المهاجر إلى القيروان ، وقام بمحاصرة قرطاجنة وهاجمها هجوماً شديدًا فى عام ٥٩ هـ (٦٧٨ م) ولم يرجع عنها إلا بعد أن نزل له الروم عن شبه جزيرة الشريك التى جنوب المدينة ، فاحتلها العرب ، ومنها بدءوا يشنون الحملات على قرطاجنة للقضاء على الروم نهائيًّا .

ودخلت سنة ٦٠ للهجرة وفى خلالها توفى الخليفة معاوية ، وظفر ابنه يزيد بالخلافة ، فكان أول ماعمله أن عزل أبا المهاجر دينارًا وأعاد عقبة بن نافع على الولاية للمرة الثانية .

ثم عادة عقبة إلى أرض المغرب وهو أشد تحمساً للفتح كما كان فى المرة الأولى ، فما إن تسلم الزمام من خصمه أبى المهاجر دينار [1] حتى جمع جيشه

(١) قيل إن عقبة قد أوثقه بالحديد كما فعل هو معه واصطحبه معه فى غزواته وهو مقيد .

وجهزه للغزو ، ثم اجتمع برؤساء الجنود وحضهم على الصبر فى القتال حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وترفرف راية القومية فى أرجاء المغرب كله .

ثم انطلق بالمسلمين وبصحبتهم جموع بربر أوربة « البرانس » وزعيمهم « كسيلة » بعد أن ترك على القيروان « زهير بن قيس البلوى » . ومضى فى طريق الزحف كالسهم المنطلق إلى مرماه فى مضاء وتصميم ، وقصد للهدف لايحيد عنه ولا يريم ، وغزا بهم مدينة « باغاية » . وانساب بعدها نحو الزاب فى المغرب الأوسط ، ويبدوا أن عقبة قد أساء إلى بعض قبائل البرانس ، الأمر الذى أغضب زعيمهم كسيلة ، وكان نتيجة لذلك أن دب الخلاف بين عقبة وبين كسيلة ، فانسحب الأخير برجاله من صفوف المسلمين .

وسرعان ما انقلب عليهم وارتد عن الإسلام ، وانضم إليه جموع كثيرة من الروم ، وبدأ معهم يشنون على عقبة الغارات ويعترضون طريق زحفه .

ولكن عقبة تمكن من الانتصار عليهم ، وسار فى طريقه يغزو ويفتح الحصون حتى وصل إلى بلدة (وليلى) وهناك اعترضه كسيلة ثانياً ، فظل يطارده ، وفى أثناء ذلك سقطت فى يده مدينتا (أغمات وتيس) والأخيرة قرب دركالة ، ودخل فى طاعة المسلمين قبائل جزولة ومصمودة .

وأخيرا انتهى به المطاف عند مدينة « إيفيران يطوف » على شاطىء المحيط الأطلسى ، ثم قيل إنه اندفع بفرسه نحو الماء حتى وصل الماء إلى ركابه ورفع سيفه وقال مخاطباً الله عز وجل :

« اللّهُم فاشهد أنى لوكنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته غازياً فى سبيلك » .

ثم التفت إلى رجاله وقال :

ارفعوا أيديكم ، ففعلوا ، واستأنف حديثه قائلا :

اللهم إنى لم أخرج بطرًا ولا أشرًا ، وإنك لتعلم أنّا نطلب الذى طلبه عبدك ذو القرنين ،وهو أن تُعْبَدَ ولا يُشرك بك شيء . اللهم إنّا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والإكرام .

ويطيب لنا أن نقف برهة عند هذه الكلمة التى ذكر فيها عقبة اسم ذى القرنين ، وهو الإسكندر الأكبر (١) ، والتى أشار فيها إلى أن دعوة الإسلام تشبه رسالة الإسكندر ، ذلك لأن الإسكندر أراد أن يجمع العالم فى أمة واحدة يسودها السلام ، إذ أن عقبة كان يفهم أن رسالة الإسلام لم تكن للإغارة والسلب ، وإنما هى رسالة سامية تهدف إلى عبادة الله دون سواه ، وعند ذلك يسود السلام بين الناس ، فلقد كان اختلاف العقائد ومازال سبباً فى اختلاف العقول ، وكثيرًا ماتطور هذا الخلاف فأشعل البغضاء وأوقد الحروب ، وماذكر الحروب الصليبية عنا ببعيد .

وبقرب الشاطئ رأى عقبة أن ينصب معسكره ليأخذ لجنده قسطاً من الراحة ، وحتى يعيد تنظيم صفوفهم استعدادًا لغزو الجنوب .

وبينما هو مشغول فى ذلك إذ سرعان ماتوقف وأمر الجيش بالعودة بسرعة نحو القيروان ، لأن أخبارًا قد بلغته أن كسيلة وجموع الروم يستعدون لضربه من الخلف .

وعبر بالجيش وادى أم ربيع فى طريق عودته مخترقاً أرض المغرب الأوسط ، ويبدو أنه أراد وهو فى طريقه أن يقضى على جيوب المقاومة التى أقامها كسيلة

(١) عند حضوره إلى مصر زار معبد الإلهٰ « آمون » بسيوة ، وكان هذا تمثله الفراعنة فى بعض الأحيان على هيئة كبش بقرون فأعلن الإسكندر أنه انحدر من صلبه فسمى « ذو القرنين » نسبة إلى آمون ذى القرون .

فى مختلف النواحى ، لذلك قسم الجيش قسمين : قسماً ذهب جنوبا بشرق ، والقسم الآخر — وكان عدده حوالى خمسة آلاف فارس — اتجه هو بهم نحو مدينة « تهودة » لغزوها لتكون قاعدة ارتكاز للمسلمين فى منطقة جبال الأوراس .

وبينما هو زاحف إليها فى خلال عام ٦٣ هجرية (٦٨٣ م) اعترض طريقه كسيلة بخمسين ألف محارب ، ودارت بين الخصمين معركة غير متكافئة ، وأظهر عقبة بطولة منقطعة النظير ، ولما أدرك أن الدائرة ستدور عليه لكثرة مالدى عدوه من الجنود بعث فى طلب أبى المهاجر دينار وأمر بفك وثاقه وقال له : « انطلق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة » .

وسمع أبو المهاجر أمره ودعته نخوته العربية وحبه لنصرة الوحدانية أنْ يقاتل بجوار سجانه فى سبيل تحقيق الهدف ونشر العقيدة السمحة الكريمة ، ورد عليه قائلاً : أنا أيضاً أريد الشهادة .

وانطلق البطلان شاهرين السيوف ، وظلا يقاتلان جنباً إلى جنب حتى سقطا شهيدين وسيفاهما فى أيديهما .

ووقع خبر استشهاد عقبة فى القيروان وقوع الصواعق ، فقرر واليها فى الحال « زهير بن قيس » الانسحاب إلى برقة قبل أن يزحف إليه كسيلة ويقضى عليه .

وخلا الميدان لكسيلة فاحتل القيروان ، وهكذا أسفر ذلك الحادث عن ضياع تلك الانتصارات الجبارة بعد صراع دام أكثر من أربعين عاماً فى سبيل فتح المغرب ، ولكن بالرغم من ذلك فإن المسلمين لم يفقدوا كل شيء . فإنهم — وإن كانوا قد خسروا سياسيًّا — فقد كسبوا دينيًّا بما تركوه وراءهم من الآلاف المؤلفة من البربر الذين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة راسخة ، والذين

لم يلبثوا أن ثاروا فى وجه كسيلة انتقاماً لمقتل عقبة ، وظلوا يناوئونه حتى دخل المسلمون ثانياً المغرب وساعدوهم ضده إلى أن قتل ، وذلك فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كما هو مفصل بعد .

ومكث زهير مرابطاً فى برقة بعد استشهاد عقبة حوالى ستة أعوام حتى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) خلالها مات الخليفة مروان بن الحكم ، وقام بالأمر بعده ابنه (عبد الملك) ، فظل زهير يستنجد به لإمداده بالجنود لمعاودة الغزو ، على الرغم من انهماك عبد الملك فى إخماد الثورات التى قامت فى العراق والحجاز ، فقد عز عليه ضياع المغرب من أيدى المسلمين ، وقرر إرسال نجدة كبيرة لزهير لانتزاعه ثانياً من كسيلة والروم ، وقال لصحابته : « لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا زهير ، وهو مثله ديناً وعقلاً » .

فوافقوه على ذلك ، وأتبعوا موافقتهم قولهم : « إنه صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره ، وأولاهم بطلب دمه » .

ووصلت النجدة إلى برقة ، وبدأت فى الزحف إلى القيروان .

وفى موضع يقال له : « ممس » بين القيروان « وتبسا » التقى زهير بكسيلة ، ودار الصراع بينهما ، وكثر القتل بين الفريقين ، وظلوا كذلك حتى إذا بدأت الشمس فى الغروب نصر الله عباده المؤمنين ، وانهزم كسيلة ولحقه بعض المسلمين فى أثناء هروبه فقتلوه شر قتلة هو ورؤساء جنده وأشراف الروم ، وعاد زهير برجاله المنتصرين إلى القيروان محملاً بالغنائم والأسرى ، وبذلك انكسرت شوكة أهل البرانس ، وقضى المسلمون على مقاومتهم ، وانتقموا لمقتل البطل الشهيد عقبة بن نافع .

وبعد هذا النصر قرر زهير العودة إلى مصر ، وما كاد يصل إلى برقة حتى علم بغارات الروم عليها وسبى الكثير من أهلها ، فانطلق إلى الساحل طمعاً فى

أن يدرك الروم قبل إبحارهم إلى صقلية ويستخلص من أيديهم سبايا المسلمين وغنائمهم ، ودارت بينه وبين الروم معركة طاحنة انتهت باستشهاده رحمه الله . وهكذا اتضح للمسلمين أن الاستيلاء على المغرب كله لايتم إلا بالقضاء على الروم أولا .

— ٢ —

مضى على استشهاد زهير نحو أربع سنوات توقف فيها غزو المغرب ، لشغل عبد الملك بن مروان بكثرة الخارجين عليه ، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير . فلما أعانه الله عليهم واتحدت الدولة الإسلامية على يديه ، كما سبق بيانه ، عزم على استئناف فتح المغرب فتحاً تامًا ، ولذلك أعد جيشاً ضخماً بلغ تعداده كما يقولون أربعين ألف مقاتل ، وأمَّرَ عليهم القائد الشجاع « حسان بن النعمان الغسانى » وقال له : « اخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه » .

وخرج حسان بجيشه فى سنة ٧٤ هجرية الموافقة لسنة ٦٩٣ م قاصدًا مدينة قرطاجنة مركز تجمع الروم وقاعدتهم البحرية الكبرى ، وانضم إليه كثير من البربر الموالين للإسلام والمعتنقين له ، فكانوا عدة له ، فدخل بهم مدينة القيروان دخول الفاتحين .

ولما أراح الجنود وجهزهم للزحف العام انطلق بهم إلى قرطاجنة فحاصرها حصارًا شديدًا ، وقاتل الروم بعناد حتى نال منهم كل منال ، ومن نجا من القتل منه ركب البحر هرباً إلى صقلية ، ودخل حسان قرطاجنة فقتل وسبى أهلها ، ثم أمر بتخريبها وتدميرها حتى لا تكون حصناً بعد ذلك فخربت عن آخرها .

وتم فى أعقاب ذلك غزو معقلين للروم على ساحل البحر المتوسط وهما « بنزرت ، وسطفورة » . ثم مدينة « باجة » . وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان ليتفرغ لتنظيم شئون البلاد التى فتحها ، وماكاد يأخذ الأهبة لتنفيذ ذلك حتى واجه ثورة جامحة تزعمتها امرأة شديدة المراس هى الكاهنة « داهيا بنت ماتيه بن تيغان » ملكة جبل أوراس ، وقبيلتها تنتسب إلى قبائل جراوة ،

أشد قبائل البتر قسوة وجرأة ، وقد التفّ حولها ألوف من البربر بعد مقتل زعيمهم كسيلة ، وقد انتشرت حول هذه المرأة معجزات خرافية ، جعلت الكثير من البربر ينضمون إليها ويأتمرون بأمرها ، وانطلقوا خلفها يعاودون حياتهم الهمجية الأولى فى السطو والنهب .

وأمام هذا رأى حسان أن يزحف إلى مقر هذه المرأة لكسر شوكتها قبل أن يستفحل أمرها ، وقال له زعماء المسلمين من البربر :

« إنْ قتلتها لن تختلف عليك البربر بعد ذلك » فسار إليها ، فلما بلغها زحفه قامت بهدم حصن « باغاية » ظنًّا منها أنه يريد الاستيلاء على الحصون ، ولكنَّ « حساناً » خيب ظنها وانطلق إليها فى مكمنها ، وبالقرب من موضع قسنطينة الحالية اقتتل معها فى معركة حامية دارت الدائرة فيها على المسلمين ، وأُسر جماعة كثيرة منهم ــ أطلقتهم الكاهنة بعد ذلك ــ سوى خالد بن يزيد القيسى ، وكان شريفاً شجاعاً فاتخذته الكاهنة ولدًا .

وأمام ذلك تراجع حسان إلى الوراء سريعًا حتى لا يقطع عليه أنصار المرأة خط الرجعة ، ثم أخلى مدينة القيروان وانسحب إلى برقة ، وهكذا انحسر الإسلام مرة أخرى عن تونس وما جاورها من بلاد الأطلس .

وبينما كان حسان مقيماً فى برقة وطرابلس يقضى وقته فى بناء المنازل لجنده وهى المنازل التى سُميت بعد ذلك بقصر حسان ، كان الروم قد احتلوا مدينة قرطاجنة ، والكاهنة من جانبها تقوم بهدم الحصون والمدن ليقينها بأنها السبب الذى يدفع العرب لغزو المغرب ، وقالت فى تبرير ذلك : « يريد العرب البلاد والذهب والفضة . ونحن إنما نريد المزارع والمراعى ، ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييئسوا منها » ، وقد كان هذا سبباً جعل السكان ينفضون من حولها ، وتمنوا حكم العرب الذى يتميز بالعدل وسيادة القانون والنظام ، ولا يبلغ بقادته المسلمين من العسف مايبلغ بهذه الحاكمة الطاغية .

ومضى على تلك الأحداث نحو أربع سنوات ، كان حسان خلالها يلح على الخليفة فى إرسال مدد إليه ، ويستحثه بقوله : « إن أُمَم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم » .

واستجاب الخليفة لتوسلات حسان فبعث له المدد والأموال ، فاكتمل لحسان جيش كبير ، فقرر فى الحال الزحف لمقاتلة هذه المرأة ثانياً ، فإمّا نصر نهائى ، وإمّا استشهاد فى سبيل الله .

وانطلق حسان بالمسلمين من برقة فى خلال عام ٨١ من الهجرة (٧٠١ م) واجتاح المناطق فى سهولة ويسر ، وقابله أهل البلاد بالترحيب وقدموا له الطاعة ، لأنهم كانوا راغبين عن حكم الكاهنة التى أنزلت بمدنهم الخراب والدمار .

وفى أثناء عبور حسان لمنطقة جبل أوراس وجد نفسه فجأة أمام جيوش عدوته ، فالتحم معها فى صراع مرير ، وصمدت له ، وجرت الدماء أنهارًا ، وخُيل للناس أن القيامة قد قامت ، ولما أدركت الكاهنة أن هزيمتها محتومة « بعثت بولديها ليستأمنا حساناً ، فأمَّنَهُمَا » . وقيل إنه ولى كُلًّا منهما على ستة آلاف مِمَّنِ استأمن من البربر والأفارقة ، على حين أنها ظلت تواصل القتال لحماية مؤخرتها لتتمكن من الهروب إلى الجبل ، ولكن حساناً أفسد عليها خطتها حين التقى بها عند « بئر الكاهنة » وشاء الله ألّا يخذل حساناً وجنوده فى هذه المرة فانتصروا عليها وقتلوها ، وبقتلها انتهت كل مقاومة للبربر ، وكانت هذه آخر ثورة لهم ضد المسلمين ، بعدها أخذوا يدخلون فى دين الإسلام أفواجاً وجماعات ، وينتظمون فى صفوف إخوانهم العرب المسلمين .

كان الروم خلال هذا الصراع قد استطاعوا بقيادة البطريق يوحنا احتلال قرطاجنة كما أسلفنا ، فلما فرغ حسان من أمر الكاهنة اتجه إليهم يؤازره أسطول

بحرى قدم من الشام ومصر لمساعدته ، وحمل عليهم فى البر والبحر حتى طردهم من قرطاجنة ، وكانت هذه آخر مرة يرون فيها المدينة ، وبذلك قضى حسان على أكبر القوى الضاربة للرومان ، فما عادوا بعدها فى المغرب يشكلون خطرًا داهماً ، ولا أصبح لهم قوة عسكرية مدمرة .

ثم اتجه حسان بعد ذلك إلى تنظيم البلاد على نحو ما هو قائم فى مصر والشام ، وفى ذلك يقول المؤرخ ابن عذارى :

« وفى هذه السنة (٨٢ هـ) استقامت بلاد إفريقية لحسان بن النعمان ، فدَوَّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » .

ثم قام ببناء مدينة تونس ومسجدها ، وكانت لاتعدو بلدًا أو قرية صغيرة ، وقام بتحصينها حتى لا يفاجئه الروم من البحر ، وهى فى الوقت نفسه تشرف على قرطاجنة ، وأخذ يوجه جهوده نحو القيروان ، فوسع فيها وجدد بناء المسجد الجامع ، وانتهى من إنشاءاته فى سنة ٨٤ هجرية الموافقة لسنة ٧٠٣ ميلادية ، وكان أهم عمل له فى إفريقية بعد ذلك هو سعيه المتواصل لنشر الإسلام وتأليف القلوب ، كما أشرك معه البربر فى حروبه التى وصل فيها إلى طنجة ، وجعل لهم نصيباً من الغنائم ، ورتب لهم العطايا ، مثلهم مثل إخوانهم العرب ، وبذلك حبب البربر فى الإسلام ، وخطا الألوف منهم نحو خير الوحدانية ، فعزتهم بعد ذلة ، وجمعتهم بعد فرقة ، وهدتهم بعد ضلالة ، وأصبحوا بعد أن حاربوا الإسلام جنودًا له ، مؤمنين بعدله ، مطبقين تعاليمه ، مستضيئين بنوره : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين* يهدِى به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويُخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١) .

---

(١) سورة المائدة ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

وهكذا استطاع حسان أن يحول بلاد المغرب كلها إلى ولاية إسلامية قلباً وقالباً ، وأصبحت كلمة المغرب الإسلامى تدوى فى أسماع العالمين .

تم ذلك كله فى عهد هذا القائد العربى العظيم الذى لم يقدر لسياسته هذه أن تطول ، إذ أن عبد العزيز بن مروان (صاحب مصر) قام بعزله ، وقيل : إن نزاعاً حدث بينهما ، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه الخناق ويحد من سلطته ونشاطه فى المغرب ، فلم يجد حسان بُدًّا من اعتزال منصبه والرحيل إلى دمشق ، تاركاً أمر المغرب لموسى بن نصير [1] .

---

(١) راجع عنه : البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٥٦ ـــ ٢٥٧ ، والطبرى جـ ٤ ص ٢٢ ، وابن خلكان (وفيات الأعيان) جـ ٢ ص ١٧٦ .

— ٣ —

وغادر موسى بن نصير مصر على رأس قوة ضاربة متجهاً إلى المغرب ليتولى أمره ، ويثبت دعائم الإسلام فيه ، وينشره بين بقايا العناصر البربرية والرومانية المتمردة التى ما فتئت تناوىء المسلمين وتشن عليهم حرب العصابات .

وما إن وصل مدينة القيروان بصحبة أولاده « عبد الله ، وعبد العزيز ، ومروان » وأولاد الشهيد عقبة بن نافع « عياض ، وعثمان ، وأبى عبيدة » حتى اتخذ لنفسه خطة يسير عليها فى غزواته تضمن له النصر فى زمن قليل ، وهى أن ينشر أجنحته فى جميع أنحاء المغرب ، وبخاصة فى أقاليمه الشمالية ، ليأخذ البيعة من جميع أهله فى وقت واحد .

وكانت أولى ضرباته متجهة إلى المتمردين فى قلعة « زغوان » القريبة من القيروان ، فبعث إليهم بفرقة من خمسمائة فارس أمكنهم أن يضربوهم الضربة القاضية ، ويأخذوا البيعة ممن استسلم منهم .

ثم بدأ موسى بعد ذلك فى تنفيذ خطته ، فقسم الجيش إلى عدة أقسام :

القسم الأول : قاده ابنه عبد الله بن موسى ، وانطلق به إلى أماكن العُصاة حول تونس ، فأخضعهم وسبى منهم سبياً عظيماً .

القسم الثانى : بعث على رأسه ابنه مروان بن موسى ، وزحف به نحو الأماكن القريبة من الساحل ، فانتصر على فلول الروم وأنصارهم من البربر وغنم غنائم هائلة .

القسم الثالث : عين عليه موسى أولاد الشهيد عقبة ، ووجههم إلى مدينة سجوما للانتقام من رجال القبائل الذين اشتركوا فى هزيمة والدهم ومقتله ، وقد حالفهم التوفيق فأثخنوهم بالطعنات ، ولم يتركوهم إلا بعد أن أفنوهم جميعاً ، وعلى رأسهم « ستمائة » رجل هم قادة أمرهم .

القسم الرابع : توجه به موسى بصحبة كبار القواد عياش بن أخيل والمغيرة ابن أبى بردة وزرعة بن أبى مدرك ، وظل يذرع به أماكن الثائرين شمالاً وغرباً وجنوباً ، حتى استطاع أن يقضى على بقايا الحاميات الرومية وأنصارها ، وكان قضاؤه شديدًا مروعاً ، فلاقى بعض العصاة من قبائل هوادة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرهم من ثوار البتر والبرانس على يديه أشد أنواع التنكيل ، مما جعل السكان يتسابقون فى الخضوع له ، ويهرعون إليه معلنين إسلامهم ليأخذوا مكانهم فى جيوش الغزو ، لينالوا الغنائم وثواب الله على إعلاء كلمته وتثبيت وحدانيته .

ولم يفت موسى فى أثناء ذلك أن يبعث ببعض الغنائم النفيسة والسبايا الجميلات إلى مولاه عبد العزيز بمصر ، ثم للخليفة عبد الملك ، ويقول المؤرخ الدينورى فى ذلك : « وأهديت لعبد الملك جارية إفريقية أهداها إليه موسى بن نصير عامله على أرض المغرب ، وكانت من أجمل نساء دهرها ، وكانت أثيرة لدى عبد الملك » .

وهكذا نجح موسى بن نصير فى إرضاء الخليفة ، فزال بذلك ما كان يحمله له من أحقاد .

اجتمع لموسى بن نصير بعد تلك الانتصارات آلاف من فرسان البربر الشجعان انضموا إليه عن طواعية ، وكان منهم فارس مؤمن صادق الإيمان ذلك هو طارق بن زياد الليثى ، الذى أظهر من الإخلاص لدعوة الإسلام

ما استرعى انتباه موسى بن نصير فقربه إليه ، وقدمه على من عداه من كبار القواد ، وقد اختلف الرواة فى نسب طارق ، فالأكثرون يقولون ، إنه بربرى ، وإنه مولى موسى بن نصير ، وقال آخرون : إنه فارسى ، والواقع أن أمر طارق لا يحتمل خلافاً ، فهو بربرى انحدر من أصلاب قبيلة عربية اختلطت دماؤها بدماء الوندال الذين سكنوا المغرب فى عام ٤٢٩ بعد مولد المسيح .

وقد كان طارق أبيض الوجه أشقر الشعر ، أزرق العينين ، حتى إن بعض المؤرخين المحدثين يعدونه جرمانى الأصل أكثر منه إفريقيًّا .

كان لابد لموسى وقد اجتمع له هذا الجيش البربرى الجرار الذى بلغ عدده حوالى اثنى عشر ألف فارس ، جمعتهم مع العرب صفات البداوة والطرة وحب الغزو فى سبيل الله أن يفتح لهم مجالاً للغزو وإلا أفلت منه زمامهم ، لذلك ما كاد ينتهى من تدبير شئون المدن التى طهرها من المتمردين حتى سرعان ماقادهم جميعاً بصحبة جيشه العربى البالغ « سبعة عشر ألفاً » إلى ميادين المغرب الأقصى لإخضاع الثائرين وإعادة الأمن إلى نصابه فى تلك الجهات .

وظل ممعناً فى زحفه يضرب ذات اليمين وذات الشمال لاتصده حصون ولاتقف فى سبيله عقبة حتى اجتاز نهر درعة لأول مرة فى تاريخ الفتح العربى لإفريقية ، وبلغت جيوشه السوس الأقصى فى تلك البقعة التى لم يصل إليها أى فاتح أجنبى غيره .

وبعد أن أخذ موسى الطاعة من الأهالى استأنف زحفه الخاطف نحو المدن التى على شاطئ المحيط الأطلسى ، واتجه إلى طنجة ــ وهى فى ذلك الوقت أعظم بلاد المغرب حضارة ــ فبلغها فى خلال عام ٨٩ للهجرة (٧٠٧ م) فوجدها حصينة قوية ففرض عليها الحصار ، وكان الحصار شديدًا جعل حاكمها البيزنطى « أخيلا » يهرع إلى موسى معلناً خضوعه ، وقيل : إنه اعتنق الإسلام لينقذ أهله من السبى .

نصر ما بعده نصر لم يقنع به الفاتح الكبير ، بل انطلق ثانياً كالريح نحو حصن (سبتة) الرومانى ليأخذ الطاعة من حُماته فاستعصى عليه ، كما استعصى على عقبة بن نافع من قبل ، فحاصره ، وكان حاكمه يدعى الكونت جوليان أويليان النصرانى كما سماه العرب ، وكان تابعاً بالاسم لبيزنطة ، ولما بدأ العرب فى غزو المغرب وقضوا على قوة بيزنطة العسكرية فى مختلف الميادين اتجه يليان إلى ملوك أسبانيا ليحموه من خطر الغزو الإسلامى ، فكانوا يمدونه بالعون عن طريق البحر ، وقيل : إنه كان يمت بصلة النسب للملك غيطشة ملك أسبانيا فى ذلك الوقت .

ولما طال الحصار حول الحصن وعجز موسى عن فتحه رأى أن يتركه ويرجع إلى طنجة حتى يؤمن الطريق خلف المسلمين ، ومن هناك أخذ يشن عليه الحملات ، ولكنه لم يستطع أن ينال منه وطرًا ، نظرًا لما كان يأتى يليان من المدد الأسبانى .

وأخيرًا قرر موسى الرجوع إلى القيروان التى طال غيابه عنها تاركاً القائد الشجاع طارق بن زياد على طنجة ومعه « تسعة عشر ألفاً » من فرسان البربر والمسلمين ، وقلة من فقهاء العرب ليعلموهم فرائض الدين وأصوله ، وعهد إليه بالعمل على إخضاع قبائل غمازة وبراغوطة القاطنة حول طنجة ، ثم كلفه مراقبة « سبتة » وانتهاز الفرص لغزوها وتحطيم شوكتها .

غادر موسى طنجة واتجه إلى القيروان حاضرة المغرب الإسلامى لتدبير أمر المدن المفتوحة ، ونشر الدين بين القبائل والأجناس ، ونجح فى ذلك نجاحاً كبيرًا ، واستطاع بما له من دراية واسعة فى قيادة الجماهير ، ونباهة فى إدارة السلطنة ـــ كما يذكر المقرى ـــ أن يمزج الأجناس بعضها ببعض ، وأحسن المعاملة ، وطبق حكم المساواة لافَضْلَ لأحد على آخر إلا بالتفانى فى الجهاد فى سبيل الله وإعلاء وحدانيته وإقامة الحدود ، فرغب الناس فى الإسلام واستجابوا

لندائه الذى يقرع الأسماع على اختلاف عقائدها ، ويدعو إلى الصلاة ، فكأنما كان هذا النداء وهذا الأذان فيضاً عجيباً من الله تفتحت به أسماع أهل المغرب وتطهرت أرواحهم ، واستجابت نفوسهم لدعوة الحق والإيمان ، الدعوة التى تؤلف ولا تمزق ، وتوحد ولا تفرق ، وتصلح فى الأرض ، لا لتفسد بين الناس ، وقد صنعت هذه الدعوى فى القلوب فوق مايصنع السحر ، فتدفق سيل الداخلين فى الإسلام من أهل المغرب منبهرين بتعاليمه السمحة وصفحه الجميل وعفوه السابغ .

وبهذا أخذت اللغة والثقافة العربية تنتشر بسرعة ، وأصبح الفتح الإسلامى للمغرب فتحاً عسكريًّا ومعنويًّا فى آن واحد ، إذ ضمن انتقال شعب البربر من حكم الروم المستعمرين إلى حكم إخوانهم العرب المسلمين ، ومن ديانة الشرك والتثليث إلى ديانة الإسلام والتوحيد ، حتى أصبح المغرب بمثابة الجناح الغربى للأمة العربية الإسلامية التى تمتد حدودها من الخليج إلى المحيط .

— ٤ —

وبينما كان موسى بن نصير يبعث الكتائب بصحبة الفقهاء إلى مختلف أماكن القبائل القاطنة فى جوف البلاد ليأخذوا البيعة منهم ويفقهوهم فى الدين الجديد كان طارق بن زياد قد حاول مرارًا غزو سبتة ولكنه لم يستطع ، وقد رأى حاكمها يليان من محاولات طارق المتكررة على مهاجمته أنه واقع فى يده فى يوم ما ، نظرًا لما يتجمع لطارق كل يوم من الرجال الذين يهرعون إليه للانضواء تحت لوائه ، فعزم على مصانعة « طارق » والدخول معه فى الصلح ليأمن شره ، وكان أن اتصلت بينهما الأسباب ، ونجحت مفاوضات الصلح بينهما .

ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذى قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بمودة صاحبها ، عسى أن يستعين به على إخضاع من هم تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون .

وكان طارق سياسيا بارعاً ، فبادل يليان ودًّا بودٍّ ، وفى هذه الأثناء مات « غيطشة » ملك أسبانيا والعون الأكبر ليليان فى الدفاع عن مدينته ، واغتصب عرشه القائد القوطى « رودريجو » أو لذريق كما سماه العرب ، وشتت شمل ورثته الشرعيين « أولاد غيطشة » ، وتنفيذًا لما كان بين غيطشة ويليان من عهد أراد الأخير مساعدة أولاد حليفه ليجلسوا على عرش أبيهم ولكنه عجز عن ذلك ، فوقف فى مدينته « سبتة » يرقب الأحداث ، وكان لايفتأ يدبر المؤامرات لخلع لذريق .

وفى أثناء ذلك جاءه الخبر بأن ابنته « فلورندا » أو « كافا » كما عرفها العرب التى كانت تعيش فى قصر أسبانيا لتتأدب بآداب الملوك كما جرت بذلك العادة

وقتئذ ، وهى قيام أمراء الأقاليم وخلفاء الملوك بإرسال بناتهم وأولادهم إلى بلاط الملك بطليطلة لهذا الغرض ـــ قد اغتصبها الإمبراطور « لذريق » وأهدر شرفها ، فعزم يليان على الانتقام منه بأى ثمن ، حتى لوكان فى ذلك تحريض المسلمين على غزو أسبانيا النصرانية ومساعدتهم ، وقد آثر أن يكتم هذا فى نفسه حتى يسترد ابنته ، وقال فى ذلك لأهله ـــ فى رواية المؤرخ ابن عبد الحكم : « لا أرى له عقوبة إلا أن أُدْخِلَ عليه العرب » .. وبعث لطارق سرًّا بهذا الخصوص قائلاً : « إنى مُدخلك الأندلس » .

وكان أن غادر مدينته وعبر البوغاز إلى أسبانيا وذهب لمقابلة لذريق .

وذكر أن لذريق استغرب حضوره فى هذا الوقت « وقت الشتاء » ، فتعلل يليان بقصة ابتكرها من وحى خياله ، وهى أنه لم يحضر إلا تحت إلحاح زوجته المريضة التى أوشكت أن تموت وتتلهف على رؤية ابنتها قبل أن يدركها الموت ، ورجاه أن يأذن لابنته بالرحيل معه لزيارة أمها المريضة ، فتأثر لذريق ووافق على سفرها معه بعد أن منحها هداياه الملكية ، وأخذ عليها العهد بكتمان أمره معها ، كما أنعم على والدها بفيض من بره وعطاياه .

وانقلب يليان راجعاً بصحبة ابنته ، وعندما ودع لذريق يليان قال له ما معناه :

إذا قدمت علينا ثانياً فتخير لنا من الشذانقات « نوع من طيور الصيد » التى لم تزل تطرفنا بها ، فإنها آثر جوارحنا لدينا . فأجابه يليان :

« أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأُدخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط » .

وكان يضمر بهذا ما استقر رأيه عليه من مساعدة المسلمين لغزو أسبانيا لخلعه انتقاماً منه وتشفيًّا فيه .

وهنا يغلب علينا الظن أن السلام الذى قام بين يليان وطارق كان من ضمن دوافعه تلك الحادثة التى وقعت قبل اتصال الرجلين أحدهما بالآخر ، تلك التى دفعت يليان عند وصوله إلى « سبتة » مع ابنته بأن يبعث لطارق ويحضه على فتح الأندلس واعدًا إياه بالمساعدة وتقديم السفن اللازمة لنقل جنوده إلى الشاطئ الآخر على ألّا يتعرض للإغارة على حصنه ويتركه لشأنه سيدًا عليه ، وقبل طارق العرض ، وبدأ يعمل له كما هو موضح بعد . ووصل يليان إلى حصنه « سبتة » وتقابل مع رسل أولاد « غيطشة » وعرض عليهم مانواه للإمبراطور لذريق فوافقوا على ما أضمر ونوى ، وفوضوا له العمل آملين أن يكون فى ذلك فاتحة خير لإعادة العرش المغتصب إلى ورثته الشرعيين « أولاد غيطشة » .

وذهب « أخيلا » حاكم طنجة السابق الذى دخل فى ذمة المسلمين يبلغ طارقاً ما اتفق عليه المتآمرون من دعوته لغزو الأندلس ، وأن أعوانهم بالشاطئ الآخر منتظرون عبوره لمعاونته ، وأنهم اتفقوا على الغدر بلذريق يوم المعركة الفاصلة بينه وبين المسلمين .

ووافقهم طارق على ذلك ، وعاد أخيلا يبلغ يليان موافقته ، فعزم يليان على مقابلة طارق والاتفاق معه على خطة الغزو ، وانطلق إليه وهو واثق من نجاح مؤامرته ضد لذريق ، خصوصاً أن الأخبار قد وصلته قبل مغادرة سبتة بأن لذريق قد ذهب إلى إقليم « بنبلونة » فى أقصى الشمال لإخضاع أنصار أولاد « غيطشة » الذين لم يُغْمَد لهم سيف منذ أن اغتصب لذريق العرش من أصحابه ، وكان اللقاء بين الرجلين يبشر بالنجاح ، فسرعان ما اتفقا على العمل معاً .

واستقر الرأى على أن يذهب يليان إلى موسى بن نصير لعرض الأمر عليه وأخذ موافقته .

ومضى يليان من فوره ووصل القيروان فى خلال عام ٩٠ للهجرة الموافق لعام ٧٠٨ الميلادى ، وأخذ يحبب موسى فى فتح الأندلس ويسهل له كل صعب ، ويصف له محاسنها وما تحويه من الخيرات والكنوز ، ويكشف له مواضع الضعف فى حصونها ، وقد عاهده على الانضمام بجانبه مع جميع ما يلزمه من العدد والعتاد حتى يعبر العرب إلى الضفة الأخرى .

ورضى موسى ، ولكنه أراد أن يقف على مدى إخلاص يليان لهذا العرض فابتدره قائلاً :

« ومن أين لى أنْ أتيقن صدق نياتك » ؟

فقال يليان :

« كلفنى شيئاً أثبت لكم فيه — معشر العرب — أننى صادق فيما عرضت » .

فطلب منه موسى أن يقوم بغارة على شواطىء الأندلس ليكون ذلك بمثابة إعلان الحرب على لذريق من ناحيته .

ونفذ يليان الأمر وقام رجاله بغارة خاطفة على أسبانيا عادوا بعدها محملين بكثير من الغنائم ، الأمر الذى طمأن موسى وشجعه على الإقدام على الفتح .

وكان لابد لموسى بن نصير أن يبعث للخليفة « الوليد بن عبد الملك » وقتئذ يعرض عليه الأمر ويستأذنه فى الغزو ، فردّ عليه الوليد بقوله :

« خضها — أولا — بالسرايا « يعنى بقلة من الجنود » حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » .

ورد عليه موسى يقول :

« إنه ليس ببحر زخار ، وإنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه » .

فنصحه الخليفة ثانياً : بأن يكتشفها بنفر قليل من الفرسان قبل مغامرته بجيشه الكبير .

وأخذ موسى بن نصير يستعد لإرسال فرقة صغيرة من الجنود كأمر الخليفة لاستطلاع أحوال الأندلس ، وبعث يخبر يليان بالأمر ، فأظهر هذا فرحه ووضع سفنه الأربع على استعداد لنقل المسلمين ومساعدتهم فى العودة ثانياً .

واختار موسى بن نصير للقيام بهذه المغامرة واكتشاف الأندلس أحد قواد العرب المشهورين بالإقدام هو « أبو زرعة طريف بن ملوك المعافرى » وزوده بكتيبة من الفرسان عددها أربعمائة فارس ، سار بهم إلى « سبتة » ، وهناك وجدوا فى انتظارهم يليان ، فأركبهم السفن مع نفر من رجاله ، واجتازت بهم مضيق جبل كالبى « جبل طارق بعد ذلك » ثم نزلوا فى جزيرة « بالوماس » على مقربة من الموضع الذى أُنشئت فيه بعد ذلك بلدة « طريف » والتى تسمى اليوم « رأس طريف » وقد كان فى استقبالهم أعوان يليان وأولاد غيطشة لمعاونتهم وحراسة مؤخرتهم ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٣ هجرية (يوليو سنة ٧١٠ م) .

وانطلق الفرسان العرب يجوبون الشاطئ الجنوبى للأندلس ويستولون على كل ماصادفهم من كنوز الأرض وفتياتها الحسان ، بدون أن يجدوا أمامهم مايصدهم أو يعرقل سير غزوتهم الصغرى .

وعاد الجنود سالمين ، وبعث « طريف » إلى موسى بنتائج مغامرته ونصيبه من الغنائم التى كانت فريدة فى نوعها ، والتى جعلت موسى يصر على امتلاك الأندلس مهما كان الثمن ، واستقر رأيه على إرسال جيش كبير لغزوها بقيادة صَفِيِّهِ البطل المقدام طارق بن زياد .

الفتـح الإسلامـي للأندلـس

ـ ١ ـ

أمر موسى بن نصير أحد جنوده الشجعان ، وهو « طارق بن زياد » أن يستعد للعمل من أجل فتح الأندلس .

ووقف موسى بن نصير يودع طارقاً وهو يتقدم موكب الغزو لفتح أسبانيا وتعريبها وحذره التهور فى الحرب محافظة على أرواح الجنود ، وأن يستشير أصحابه ويشركهم فى الأمر ولا يجتهد مسرعاً بل بالتؤدة ، « فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل الحازم الْكَيِّسُ الذى يعرف الفرصة فيقتنصها » ثم وصى قواد الفرق بألّا يجبنوا عند اللقاء ، ولا يمثلوا عند القدرة ، وأن ينزهوا جهادهم عن عرض الدنيا ، ففى ذلك النصر كل النصر (١) .

ثم وقف طارق فى أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢ هجرية الموافقة لسنة ٧١١ ميلادية يباشر عبور المسلمين إلى شاطئ أسبانيا الجنوبى وهم على سفن يليان ويستمع إليهم وهم يرددون فى فرحة بالغة خلف شاعرهم شعره الحماسى الذى مطلعه :

ركبنـا سفينـاً بالمجاز مُقَيَّــرا (٢)
عسى أن يكون الله منا قد اشتَرى

---

(١) يروى بعض المؤرخين أن الأندلس غُزيت من البحر فى عهد عثمان عام ٢٧ هـ (البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ٢ ص ٥ ـــ طبع مكتبة صادر بيروت) .

(٢) مُقَيَّرا : أى مطليًا بالقار .

نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة
إذا ما اشتهينا الشيء فيها تَيَسَّرا
ولسنا نُبالى كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

ولم يأت اليوم الخامس من شهر رجب إلا كانت آخر دفعة من الجنود بقيادة طارق بن زياد وصاحبه الكونت يليان تهبط أرض أسبانيا ، وقد وجد الجميع فى انتظارهم أنصار الملك غيطشة ، فكانوا لهم خير العون والسند .

وبدأ طارق فى العمل بسرعة ، فأمكنه أن يسيطر على أكثر مدن الساحل الجنوبى « من قرطاجنة حتى الجزيرة الخضراء » وبذلك أصبحت تلك المدن التى على مضيق جبل كالبى « جبل طارق من ذلك الحين » الذى يبلغ حوالى خمسة كيلو مترات ترفرف عليها الراية العربية الإسلامية .

ثم تركها طارق فى حراسة رجال يليان ، وانطلق هو شمالا بغرب ، فملك « طريف » وظل زاحفاً دون أن يجد أمامه مايصده ، حتى وصل إلى نهير البرباط الذى يخترق بحيرة لاخنداً ، وهناك عسكر فى واديه الفسيح بجوار بلدة صغيرة أطلق عليها العرب اسم « بكة » وسموا الوادى باسمها .

وجاءت العيون تخبر طارقاً بأن الإمبراطور لذريق قد غادر مدينة قرطبة فى طريقه إلى شذونة لملاقاته فى جيش بلغ عدده « مائة ألف جندى » .

وأمام هذا الخبر أسرع طارق بإرسال أحد قواده « طريف بن ملوك » إلى موسى بن نصير يطلب منه مددًا ، ويخبره بما أحرزه العرب من نصر ، وأنهم ملكوا مداخل الأندلس ، وأن لذريق فى الطريق إليه بما لا قِبَلَ له به إلّا أنْ يشاء الله .

وكان موسى بن نصير منذ عبور المسلمين بقيادة طارق بن زياد على سفن يليان قد ساءه ألّا يكون للعرب أسطول بحرى يغنيهم عن طلب المعونة من يليان وغيره ، لذلك جلب العمال والصُّنَّاع وشرع فى إنشاء عدة سفن ، حتى صار عنده منها عدة كبيرة ، فلما جاءه طريف برسالة طارق قام على الفور وبعث معه خمسة آلاف جندى أركبهم السفن العربية مرة واحدة .

ولم يمض طويل وقت حتى كان الجنود يأخذون مكانهم مع إخوانهم البُسلاء فى سهل البرباط ، وهم جميعاً أقوياء على المغانم حِرَاصٌ على اللقاء ، ومعهم يليان المستأمن إليهم فى رجاله وأهله عَلّه يدلهم على الثغرات ، ويتحسس لهم الأخبار ، وقد قرروا أن ينطلقوا إلى ماهاجروا إليه فى عزيمة وبأس : فإمَّا نصر تثبت به دعوة التوحيد فى أرجاء أسبانيا ، وإما استشهاد فى سبيل مجد الله ووحدانيته ينالون به عند ربهم المقام الأسمى ومنزلة الصِّدِّيقين الأبرار .

— ٢ —

وكان الإمبراطور لذريق منذ أن علم بنزول العرب إلى الأندلس قد أوقف جميع عملياته الحربية ضد الثوار فى إقليم بنبولنة ، وغادر الشمال مسرعاً إلى مدينة « قرطبة » لتكوين جيش كبير يواجه به طارقاً وصحبه ، وأرسل الرسل لأولاد غيطشة يعرض عليهم الصلح ويؤمنهم على أنفسهم ، ويستنفرهم للقتال معه ، وأن يكون الجميع يدًا واحدة ضد المسلمين .

وقبل أولاد غيطشة العرض لتنفيذ مؤامرتهم ضده ، وساروا إليه فى رجالهم وأنصار أبيهم ، وبالقرب من قرية شقندة انضموا إلى جيش لذريق ، وهم جميعاً يضمرون كرهه ، وقال كبيرهم :

« إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خبالاً فى أمرنا ، وهؤلاء القوم « العرب » الطارقون « لبلادنا » لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا ، وإنما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فلهم فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا أذاه ، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه » .

وانطلق لذريق بجيشه وهو لا يدرى ما بَيَّتَهُ له أولاد الملك غيطشة إلى أن وصل سهل البرباط الفسيح فى الجهة التى بقرب مدينة شذونة ، فرأى على بعد حوالى فرسخين معسكر المسلمين ، فوقف فى مكانة ينظم صفوفه ويعد جنوده للقتال .

وقف الغريمان وجهاً لوجه ، كل منهما ينتظر أن يكون خصمه البادئ بالهجوم ، ولما ظهر لطارق أن الساعة الفاصلة قد أوشكت أن تحل اتفق مع

قواد الفرق على حرق سفن الغزو لكى يفقد الجنود كل أمل فى العودة ثانيًا إلى المغرب ويقاتلوا قتال المستميت ، وفى ذلك ضمان للفوز (١).

وسرعان ما اندلعت النار فى السفن وملأ دخانها أجواز الفضاء ، الأمر الذى حير لذريق وبعث فى التوّ من يأتيه بنبأ ذلك ، وقد هرعت إليه الرسل يملؤهم الفزع قائلين : « أيها الملك ، لقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، فقد أحرقوا سفنهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، ووقفوا فى السهل مُوَطِّنِين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » ، فخاف ثم تضاعف جزعه .

وفى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هجرية الموافق ١٩ من يوليو سنة ٧١١ ميلادية وقف طارق يحث المسلمين على الصمود والثبات فى أثناء القتال ، وقال فيهم خطبته الخالدة التى بدأها بقوله :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وأنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إنْ سمحتم لأنفسكم بالموت ، وأنى لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعًا فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إنْ صبرتم على الأشق قليلاً

---

(١) يشك البعض فى ذلك ، لأن السفن لم تكن ملك المسلمين ، ولكن ليس من المستبعد أن تكون هذه السفن من التى بناها موسى بن نصير كما سبق القول .

استمتعتم بالأَرْفَهِ الأَلَذِّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفَى مِن حظى » .

ثم ختمها بقوله :

أيها الناس :

« ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إنْ حملتُ فاحملوا ، وإنْ وقفتُ فَقِفُوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال » إلى أن قال :

« وهأنذا حاملٌ حتى أغشاه (١) فاحملوا بحملتى ، واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون » .

وبعد لحظة صمت رهيبة أصدر طارق للجنود إشارة الهجوم ، فانطلقوا إلى صفوف أعدائهم كالريح العاصفة مكبرين مُهلِّلين ، ودوى صدى تكبيرهم فى أنحاء الوادى ، كرعد السماء ، فملأ الخوف قلوب القوط الذين لم يتعودوا من قبل سماع مثل هذا النداء ، وكان القتال بالقرب من بلدة شريش ، وظل سجالاً بين الطرفين حوالى سبعة أيام ، وفجأة بدأ أولاد غيطشة عندما سنحت لهم الفرصة ينفذون ما عاهدوا أنفسهم عليه ، فانسحبوا من مواقعهم وانضموا إلى صفوف المسلمين ، الأمر الذى أوقع الفشل فى جيش القوط ، وجعل من نجا منهم يدير ظهره للمسلمين فرارًا ورعباً ، تاركاً خلفه ملء السهل والجبل آلافاً من جثث إخوانه ، وعتادًا لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى .

أما لذريق فقد فر ناجياً بنفسه واتجه ناحية النهر ثم عبره سباحة إلى الضفة الأخرى ، تاركاً فرسه الأشهب المسرج بالذهب والياقوت ، وخفه المفضض على الشاطئ ليوهم المنتصرين بأنه غرق فيكفوا عن مطاردته ، ولكننا سنلتقى به بعد ذلك على رأس جيش كثيف عندما يقف وجهاً لوجه أمام بطلنا « موسى ابن نصير » فى معركة السواقى ، وسنشاهد فيها نهايته المحتومة .

---

(١) أى لذريق .

ولما فرغ طارق من توزيع الغنائم على المحاربين عقب انتهاء المعركة انطلق نحو مدينة « استجه » فدخلها غازيًا ، ثم أشار عليه الكونت يليان بأن يقسم جيشه أربعة أقسام ، كل قسم يسير إلى جهة لإخضاعها ، فقبل طارق مشورة الحليف ، وسار القسم الأول بقيادة مغيث الرومى لاحتلال مدينة قرطبة ، وزحف القسمان الثانى والثالث بقيادة زيد بن قاصد إلى مدن الجنوب ، أما القسم الرابع فقد قاده طارق بنفسه واندفع به لغزو مدينتى طليطلة « العاصمة » والمائدة « قلعة هنارس » .

ولما كلل الله جبين هذه الجيوش الأربعة بأكاليل الظفر ، واستطاع مغيث الرومى فتح مدينة قرطبة وأسر حاكمها القوطى الذى احتفظ به لنفسه ليفتخر به عند الخليفة « الوليد بن عبد الملك » . واستطاع جيش الجنوب الاستيلاء على مالقة وغرناطة وما حواليهما من قرى ، وغنم طارق أموال العاصة وتيجان الأباطرة الذهبية المرصعة بالجواهر ، والمائدة الرائعة المصنوعة من الزبرجد الأخضر التى لها ثلاثمائة وخمس وسبعون رِجلاً ، والتى كان القساوسة يحملون عليها الأناجيل فى وقت العبادة ويضعونها على المذابح فى أيام الأعياد مباهاة بعظمتها .

كان الشتاء قد أقبل ، ففضل طارق بن زيادة أن يقيم فى طليطلة ويوقف عمليات الغزو إلى مابعد انتهاء فصل الشتاء ، وقام فى خلال ذلك بإعادة أملاك أولاد الملك غيطشة إليهم اعترافاً لهم بما قدموه للمسلمين من مساعدة .

ولما عرف هؤلاء « أولا غيطشة » أن العرب لم يأتوا أسبانيا وهم يقصدون إصابة الغنائم ثم يرحلون بعدها إلى المغرب تمنوا من طارق ثم من موسى بن نصير المزيد من الضياع ، ولكن البطلين رفضا واكتفيا بإعادة « ثلاثة آلاف الضيعة » التى كان لذريق قد صادرها منهم من قبل . فامتثلوا للأمر وانزووا يندبون حلمهم الذى تبدد ، وهو استرجاع عرش أبيهم المفقود .

هرعت الرسل إلى موسى بن نصير بالقيروان تحمل له تفاصيل الموقف الحربى بالأندلس ومدى ماوصل إليه المسلمون من فتح لها ، فرأى أن طارقا قد اتجه فى زحفه شمالا بشرق ، وترك أغلب مدن الغرب دون غزوها ، وهى فى نظره أخطر الجهات على جيوش الفتح ، نظرًا لكثرة ماتجمع فيها من القوط الهاربين ، فعزم فورًا على العبور بجيشه لإخضاع هذه المدن خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على المسلمين .

وبينما هو آخذ فى الاستعداد لذلك إذ جاءته رسالة من طارق يحثه فيها على العبور إليه لنجدته قائلاً له : « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث » .

وقد بعث طارق لموسى بهذه الاستغاثة بناء على الأخبار التى وصلت إليه من الكونت يليان من أن القوط بدءوا يكتلون أنفسهم للانقضاض عليه فى طليطلة ، لذلك ما إن وردت هذه الاستغاثة إلى موسى بن نصير حتى أسرع بتجهيز الجنود للإبحار بهم إلى الأندلس .

وفى أوائل شهر رجب من عام ٩٣ للهجرة غادر موسى مدينة القيروان على رأس جيش بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً ، ونزل فى موضع بالأندلس سمى منذ ذلك الوقت بمرسى موسى ، وكان فى استقباله الكونت يليان الذى حثه على الزحف بسرعة ، نظراً لاشتداد المقاومة القوطية التى بدأت ترفع رأسها ، وتقض مضاجع الحاميات الإسلامية فى مختلف المدن التى فتحوها .

وما إن انتهى باقى الجنود من عبور البوغاز ووافوا زملاءهم فى مكانهم

بالجزيرة الخضراء حتى انطلق موسى بن نصير بالجميع نحو مدن شذونة وقرمونة وراعوق فاستولى عليها دون جهد .

ثم تركها فى حراسة أنصار يليان وبعض الفرق العربية ونفر من اليهود الذين تطوعوا لخدمة المسلمين منذ ابتداء الفتح لحاجة فى نفس يعقوب .

وزحف مسرعاً نحو مدينة أشبيلية ، وهى حصن القوط الحصين ، ومن أعظم مدن الأندلس ، وموقعها يساعد حُماتها على الوقوف أمام هجمات الزاحفين ، إذ أن نهر الوادى الكبير — وهى على ضفته اليمنى — يساعد فى مناعتها وتحصينها ، فاستعصت على موسى عدة أشهر ، فحاصرها حصارًا محكماً ، ولما أثّر فى سكانها الجوع من شدة الحصار قام هؤلاء السكان فى الليل وغافلوا حراسها القوط وفتحوا الأبواب للغزاة ، فدخلها موسى دخول الظافرين ، وهرب القوط نحو مدينة باجة ، واعتصموا بداخلها ، ومنها راحوا يرقبون سير التيار .

ثم اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة ماردة ، وكانت هذه المدينة من أمنع مدن أسبانيا ، وبها من الآثار والقصور والكنائس مايفوق الوصف ، وقد فتحها موسى صلحاً بعد حصار طويل ، وماكاد ينتهى منها حتى بعث ابنه « عبد العزيز » إلى أشبيلية لإخضاع الثائرين الذين انقضُّوا على الحامية الإسلامية واستولوا على المدينة . وقد نجح عبد العزيز فى كسر شوكة المتمردين وإعادة النفوذ العربى إلى المدينة « ثانيا » ، ثم مضى نحو المدن الغربية التى لم يتيسر للمسلمين فتحها مثل باجة وبابرة وشنترين فنجح فى الاستيلاء عليها جميعاً .

— ٤ —

وبينما كان موسى بن نصير يحتفل بانتصارات ابنه « عبد العزيز » ويعد جنوده للجولة الثانية ، كان الإمبراطور لذريق قد استطاع بعد هروبه عقب هزيمته فى معركة رلكة أن يجمع فلول جيشه المنهزم ، ويجند أنصاره مرة أخرى ، ثم وقف بهم فى المنطقة التى بين وادى نهرى « آنة ، والتاجة » لمعاودة الكَرة ضد العرب .

ولما وصلت هذه الأخبار إلى موسى بن نصير قرر فورًا الزحف نحو بلدة « طليبرة » واستدعاء طارق بن زياد من مدينة طليطلة للزحف معاً ومباغتة لذريق فى مكانه .

وترك موسى مدينة ماردة مسرعاً مخترقاً الطريق الرومانى القديم الذى يصل ماردة بمدينة سلمنقة بحذاء نُهير صغير سمى من ذلك الحين « نهر موسى » .

والتقى موسى بطارق فى مكان يسمى « المعرض » بين نهرى التاجة والتيتار ، وترجل طارق عن فرسه احتراماً لقائده الأعلى ، وتلقاه موسى بالترحاب ، ومدح شجاعته وحسن بلائه قائلا :

« ياطارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك — الخليفة — على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس فاستبحه هنيئاً مريئاً » .

ورد عليه طارق بقوله :

« أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط » .

وبعد أن تفقد موسى صفوف المسلمين وشكرهم على جهادهم وأشاد بانتصاراتهم المظفرة عسكر بهم فى ناحية « السواقى » استعدادًا للمعركة الفاصلة بينه وبين لذريق .

وفى هذه الأثناء كان لذريق يزحف برجاله نحو معسكر المسلمين ، وقد خُيل إليه أنه بضربة خاطفة سيقضى عليهم ، نظرًا لوقوفهم فى هذه المنطقة التى تبعد عشرات الكيلو مترات عن أى مركز لهم يستطيعون طلب النجدة منه .

والتحم الجيشان ، وظل القتال طيلة النهار ، وفجأة لمح « مروان بن موسى ابن نصير » الإمبراطور لذريق وهو يقاتل كالشيطان على جواده ، فاندفع ناحيته مُكبرًا ، واقتحم الصفوف غير مُبالٍ بما يتعرض له ، حتى أصبح منه قاب قوسين أو أدنى ، وفى عزمة المؤمن الواثق بنفسه ونصره رفع سيفه وهوى به على عاتقه ، ثم كرر ضربته فسقط بعدها مُجندلاً تحت الأقدام ، والفارس الشجاع يكبر تكبيرة النصر ، فسمعه كل من فى الميدان ، فأجاب كل عربى : « الله أكبر » عدونا قد مات .

وبموت لذريق اضطربت صفوفه ، وهرب من بقى من أنصاره ناجين بأنفسهم من سيف غالبٍ ، خرج فى سبيل الله غازياً ، ولدين الوحدانية ناشرًا ، فكان من المنتصرين ، ثم راح هؤلاء الهاربون فى مخابئهم يذرفون الدمع السخين على مليكهم المقتول ، وباتوا يرثونه بالملاحم الشعرية الحزينة ، وكان أروعها تلك الملحمة التى ظلوا ينشدونها على لسان مليكهم السنين الطوال ومطلعها :

كنت الليلة الماضية ملكًا لأسبانيا ، وأمسيت الليلة ولا مُلْكَ لى

كنت الليلة الماضية أملك القصور ، وأنى الليلة مُشرَّدٌ لا أعرف أين أضطجع !

وكان يخدمنى ليلة أمس مائة من الولدان وهم رُكّعٌ سجود ، وأما الآن فإننى أنادى فأسمع رجع الصدى ، وما من أحد يلبى النداء !

فيا لضيعة الأمل ، ويالسوئها من ساعة ، ويالعنة هذا اليوم ، اليوم الذى ولدت فيه لأكون ملكاً لهذا البلد العظيم !

يا لبؤسى وشقائى ، فعمَّا قريب سأشهد الشمس تغيب ويهبط ليل ثقيل !

يا أيها الموت مَنْ عَلَّمَكَ التأنِّى والتمهل ؟ ما الذى تخشاه ؟ هيا اضرب ضربتك القاضية .

وحقا كانت الضربة قاضية ، فبمقتله دانت أسبانيا للعرب زهاء ثمانية قرون طوال .

والعجيب أن القوم قد خلعوا على مليكهم بعد مصرعه أثواب البطولة وهم الذين كانوا يتمنون زوال ملكه ، وراحوا يتخذون منه المثل الأعلى لأمانيهم وآمالهم ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فقد اعتقدوا أنه ذهب حيًّا إلى مكان مجهول ، وأنه يقضى أيامه فى ندم وحسرة على ما جنت يداه من الآثام فى حق شعبه ، وقد أقبلت عليه الثعابين من جميع الأقطار ، ثم أخذت تبتلعه دون أن يقاومها ، فلما غسل ذنوبه وكفّر عن آثامه فى جوفها خرج منها طاهرًا مطهرًا ، وأنه اليوم يعيش فى جزيرة السلام حتى يحين الوقت ويعود إليهم ثانيًا ليقودهم إلى النصر الذى فقده ، ولله فى خلقه شئون .

وجمع المسلمون أحمالهم وغنائمهم وغادروا أرض المعركة ، واتجه بهم موسى ابن نصير نحو مدينة طليطلة ، حيث بلغه أن نفرًا من القوط قد وثبوا عليها وانتزعوها من أيدى الحراس العرب إثر مغادرة طارق بن زياد لها لمقابلته .

واستطاع موسى أن يبطش بالقوط بطشة الجبَّارين ، ودخل طليطلة بين التكبير والتهليل ، ثم بدأ يجمع الغنائم ويطالب القواد بأسلابهم ، وهى التى يعتبرونها حقا لهم ، الأمر الذى كان له أسوأ الأثر فى نفوسهم ، ولاسيما فى نفس مغيث الرومى وزميله طارق بن زياد ، وذلك لمطالبة موسى لمغيث

بتسليمه حاكم قرطبة الذى يحتفظ به مغيث ليتباهى به عند الخليفة ، وأخذه من طارق مائدة طليطلة الرائعة التى سبق ذكرها .

ولما فرغ موسى من ذلك بعث « التابعى على بن رباح » و « مغيثاً الرومى » إلى الشام ليبلغا الخليفة « الوليد بن عبد الملك » ما أحرزه المسلمون من نصر ، وقد رأى مغيث فى هذه البعثة أعظم فرصة ليؤلب الخليفة على موسى ، ويدس له عنده نكاية فيه ، مما أثر على خاتمة موسى عند سفره إلى دمشق امتثالا لأمر الخليفة ، كما سيراه القارىء مفصلاً بعد .

ظل موسى بن نصير بقية الشتاء مقيماً فى طليطلة ، وفى أثناء إقامته قام بسك دنانير ذهبية وعملة برونزية ليدفع منها مرتبات الجنود ويتعامل بها المسلمون فى تلك البلاد ، إذ أنهم كانوا فى ذلك الوقت يتعاملون بالعملة الإفريقية التى سبق أن سكها موسى فى المغرب سنة ٩٠ هجرية ، وكان الدينار الذهبى الجديد مشابها للدينار الإفريقى ، وقد كتب على أحد وجهيه « محمد رسول الله » يحيط بها نص باللاتينية على هيئة دائرة ، ونقش على الوجه الآخر نجمة ذات ثمانى أذرع حولها كتابة باللاتينية ، ويلى ذلك تاريخ السك ، وهو سنة ٩٧ هجرية .

والعملة البرونزية كان تعريفها مكتوبًا عليها باللغة اللاتينية أيضاً .

ولما انقضى الشتاء ولاحت تباشير الصيف عزم موسى ، على الخروج للغزو واتفق مع طارق على الزحف معاً ، وانطلقا إلى وادى الحجارة فاستوليا عليه ، ومنه انحدرا شرقاً فأخضعا مدينة « سَرَقُسْطَةَ » التى على الضفة اليمنى من نهر ابرو . ثم غادرها إلى مدينتى (الأردة ، وطركونة) وأخيرًا دخلا مدينة (برشلونة) فاتحين ، وخطر لموسى بعد ذلك أن يعبر جبال البرنات وينطلق لغزو الأرض الكبيرة « فرنسا أو الغال » ، كما كانت تعرف من قبل ، مستأنفاً زحفه شرقاً إلى القسطنطينية ، ومنها ينطلق إلى الشام ليلحق بدار الخلافة بدمشق ، ولكن قواد الجيش نصحوه بعدم المخاطرة فى تلك الأرض المجهولة ، فأذعن لرأيهم ، وعاد إلى سرقسطة ليستعد للجولة الثانية .

وفى أثناء ذلك حضر مغيث الرومى قادماً من دمشق يحمل معه أمرًا من

الخليفة لموسى بن نصير يأمره فيه بوقف جميع عمليات الغزو فورًا ، ومغادرة الأندلس بصحبة طارق بن زياد وموافاته فى دمشق لمقابلته . فأدرك موسى — الذى كانت له نظرة فى الرجال لاتخيب — أن وراء هذه الدعوى ماوراءها ، نظرًا لما بدر منه فى حق مغيث من قبل ، فطلب من مغيث أن يمهله بعض الوقت لغزو الشمال على أن يعطيه نصف ما يغنم من الأموال والسبايا ، وأن يملكه قصر حاكم قرطبة ، فقبل مغيث العرض وسار معه لغزو الشمال .

واتفق موسى مع طارق بأن يزحف كل منهما على حدة ، فزحف طارق شمالاً جهة شاطىء نهر ابرو فأخضع ولاية أرغون ، ثم استولى على بعض المدن ، منها مدينة ليون .

أما موسى بن نصير فقاد جيشه ومعه مغيث الرومى واندفع شمالا بغرب وسار متبعاً نهير النالون حتى أدرك « كوفادونجا » ثم تركها إلى « خيخون » على شاطىء المحيط الأطلسى فملكها ، وأخيرا بلغ « حصن لك » فدمره عن آخره ، وأراد أن يأسر حاكمه « بلايو » ولكنه أفلت من الأسر واعتصم بصخرة « بلاى » التى على المحيط ، فبعث موسى فى أثره فرقة من الفرسان للقبض عليه .

وبعد هذا النصر المؤزر ألح مغيث على موسى بالعودة إلى دمشق تنفيذًا لأمر الخليفة ، فاستجاب له موسى وبدأ يستعد للرحيل .

وغادر موسى بن نصير « حصن لك » وانطلق إلى ليون لمقابلة طارق الذى قدم من « اشتورقة » ، ومن هناك سارا معاً ومعهما مغيث الرومى ، وفى الطريق عرج موسى إلى مدينة طليطلة لجمع الغنائم والأسرى من أمراء القوط وأشرافهم لاصطحابهم معه إلى دمشق .

ولما انتهى من ذلك استأنف الرحيل إلى أن وصل إلى مدينة قرطبة ، فرأى « موسى » قصر حاكم المدينة الذى كان قد وهبه لمغيث ، فأُخِذَ بما شاهده من فخامته وروعته ، حتى أنه قرر أن ينقض قراره ويمنح مغيثاً بديلا عنه قصراً آخر أقل روعة منه ، الأمر الذى زاد كراهية مغيث له .

ومن قرطبة واصل موسى مسيره فوصل مدينة أشبيلية ، وقبل إبحاره منها استخلف على الأندلس ابنه « عبد العزيز بن موسى » ووصاه بمتابعة الفتح والغزو لما بقى من الأقاليم الأسبانية ، وخاصة التى فى الجنوب الشرقى ، ثم اختار له مدينة أشبيلية عاصمة للبلاد ، لاتصالها بالبحر وقربها من المجاز .

وعبر موسى إلى المغرب فى شهر ذى القعدة سنة ٩٥ هجرية (سبتمبر سنة ٧١٤ م) ولما وصل إلى مدينة القيروان عين ابنه (مروان) حاكمًا عليها وعلى ما جاورها من الأقاليم ، ثم نصب ابنه « عبد الملك » على حكومة طنجة وما يليها من بلدان المغرب الأقصى .

وغادر موسى القيروان فى طريقه إلى دمشق مصطحباً معه أسراه وغنائمه التى لم يغنم مثلها فاتح من قبله ، سوى سعد بن أبى وقاص عند فتح المدائن بالعراق .

وظل موسى يسرع فى سيره إلى أن وصل إلى مصر فى السابع من شهر ديسمبر من العام نفسه ، وفى أثناء الطريق طلب موسى من مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة الأسير الذى سبق ذكره ، فأبى مغيث أن يسلمه إياه وقال له : « لايؤديه للخليفة سواى » .

فما كان من موسى إلا أن هجم عليه وانتزع الأسير منه ، وهنا أشار على موسى بعض خاصته بأن يقتل الحاكم قائلين له : « إنْ سِرْتَ به حيًّا طالبك به مغيث عند الخليفة و(الحاكم) لاينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه » .

واستمع موسى للمشورة وقتل الحاكم ، الأمر الذى جعل الجفوة تزداد بين موسى ومغيث ، بل ودفعت الأخير بأن يضم إلى صفه طارق بن زياد ، واتفقا عند وصولهما إلى دمشق أن يسبقاه لمقابلة الخليفة ويشكواه عنده ويخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة وقتله لحاكم قرطبة ، وما قد استولى عليه من أموال وجواهر « لم تصب الملوك مثلهما من بعد فتح فارس » .

وغادر موسى مصر منطلقاً إلى دمشق ، فما وصل فلسطين قيل إنه كان بها فى ذلك الوقت ولى عهد الخلافة « سليمان بن عبد الملك » فلما رأى سليمان ما جمع موسى من غنائم ليس لها نظير طلب من موسى أن يتمهل فى سيره إلى دمشق ، لأن الخليفة « الوليد » فى النزع الأخير ، وكان سليمان يبغى من ذلك أن يصل موسى بغنائمه إلى دمشق بعد موت « الوليد » فتئول الغنائم كلها إليه .

ولكن موسى بن نصير أدرك مايهدف إليه « سليمان » فلم يستمع له ، ولم ينفذ رغبته ، مما أثار حفيظة « سليمان » ضده ، وعزم على الانتقام منه عندما يعتلى الخلافة بعد وفاة أخيه .

وحث موسى الركب حتى وصل إلى دمشق عام ٩٦ هـ ، وطلب مقابلة

الخليفة لتسليمه الأخماس والغنائم ، وبالرغم مما سمعه الوليد من وشايات فى حق موسى فإنه تحامل على نفسه وهو مريض وجلس على « منبر المسجد » لاستقباله ، فبهت مما رأى من عظم الغنائم والجواهر التى لم ير مثلها قط ، واستعرض الأسرى الذين ألبسهم موسى أفخر ثيابهم المطرزة بالذهب والفضة ، فلقد كان موسى بطبعه ميالاً إلى المُباهاة بما يقع فى يده من الأسرى العظام ، والإعلان بكل الوسائل عن انتصاراته المظفرة .

ولما انتهت عمليات التسليم دعا « الوليد » إلى إقامة صلاة شكر ، ثم أَوْمَأ إلى موسى بالتقرب إليه ورفع يده بإناء « العطور » فصب عليه ثلاث مرات وأجازه وفرض لولده ومواليه ، وأحسن جوائز القواد الذين اشتركوا مع موسى فى الفتح ، ولم يمض أربعون يوماً على هذا حتى مات الوليد بن عبد الملك ، وأُعلن فى الناس عن تولية « سليمان بن عبد الملك » خليفة مكانه ، وكان قلبه متغيرًا على موسى ، ذلك أن سليمان بن عبد الملك لما أحس باقتراب منية أخيه كتب إلى موسى يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد وفاة الوليد فَتَئُول الذخائر والنفائس التى كان يحملها موسى إلى سليمان ، ولكن موسى لم يتريث ، بل سار سيره العادى حتى لقى الوليد . وكان طبيعيًّا ألّا ينتظر موسى خيرًا كثيرًا بعد وفاة الوليد ، وكان مصير موسى لا يتناسب مع أعماله ، إذ جرده سليمان من سلطته ، وصادر أمواله ، بل إن الإنسان ، لا يكاد يصدق ماترويه المصادر المختلفة عن تعذيب الخليفة سليمان بن عبد الملك لبطل فتح الأندلس . والراجح أن الخليفة سليمان أهمل موسى وتركه فى زوايا النسيان ، وإن كنا لا نستبعد أعمال القسوة والعنف ونكران الجزاء من خليفة مثل سليمان الذى قضى على القواد العظام أصحاب الفضل فى إنشاء الإمبراطورية العربية ، لا لشىء سوى إرضاء أحقاده الشخصية .

ولاشك أن موسى هو الذى وضع أساس ما بلغه المسلمون من حضارة

وقوة فى غربى البحر المتوسط ، هذا إلى ما كان للفتح الأندلسى من آثار بعيدة المدى ، وليس من شك فى أن موسى كان يريد مواصلة الفتح إذا عاد ، فكان عدم عودته للأندلس حرماناً لمسلمى الأندلس من هذه القوة الدافعة ، ومن ناحية أخرى وجد بقايا القوط الفرصة ليستريحوا بعد هذه الحروب وليستعدوا لصراعهم الطويل مع المسلمين من جديد . وتذكر المراجع أن موسى توفى سنة ٩٧ هـ أو ٩٩ هـ وهو فى طريقه إلى الحج فى رفقة سليمان ، وكان قد جاوز الثمانين من عمره .

أما طارق بن زيادة فقد انتهت حياته فى غموض ، ولا تذكر لنا الرواية الإسلامية أين ومتى توفى . ويقال إن مغيثاً الرومى وشى به هو الآخر وخَوَّف الخليفة منه ، وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك يريد أن يوليه الأندلس ، ولكن عدل عن ذلك ، ولكن إهمال المؤرخين لطارق لم يحرمه نصيبه من الخلود ، فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة فى الأندلس وطئتها قدماه ، وهى جبل طارق ، كما سمى الزقاق مضيق جبل طارق ، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوربية جميعاً بصيغتها العربية محرفة تحريفا بسيطاً ، وقد شاءت الظروف أن يكون جبل طارق من المواضع التى يذكرها الناس على مر العصور لأسباب مختلفة لم تكن تدخل فى حساب طارق بن زياد .

ولم تشر الرواية الإسلامية إلى مصير الكونت يليان الذى مهد لفتح الأندلس (١) . وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضى ، وظل أميرًا على سبتة نظير خدماته ، ولكنه بقى نصرانيًّا هو وبنوه الأقربون ، أما ذريته بعد ذلك فقد دخلت الإسلام . أما أبناء غيطشة فقد

---

(١) انظر قصة الأدب فى الأندلس ـــ خفاجى ـــ مؤسسة المعارف بلبنان ـــ جـ ١ ص ٦٤ ومابعدها .

أقطعوا ما كان لأبيهم ، كما عين أخ غيطشة حاكماً لطليطلة [1] .

وهكذا نرى كيف امتدت الإمبراطورية العربية امتدادًا عريضاً ، وكيف كان الخليفة الوليد بن عبد الملك الملهم والقائد الأعظم لهذه الفتوح الرائعة التى حملت معها العروبة والإسلام ، والتى خطت بأهل البلاد المفتوحة قروناً إلى الأمام ، والتى نتج عنها انتشار الحضارة العربية الإسلامية الفذة التى غزت أوربا فى عصر ظلامها ، ولسنا نبالغ إذا قلنا : إن عصر الوليد يمثل الأوج الذى بلغه مجد الأمويين وسلطان العرب .

(١) انظر : محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ص ٥٧ ــ ٥٨ (القاهرة ١٩٤٣ م) .

مصادر الكتاب

الأبشيهى : شهاب الدين أحمد .
« المستطرف فى كل فن مستظرف » .

أبكاريوس الأرمنى : « نهاية الأرب فى أخبار العرب » (مرسيليا ١٨٥٢ م)

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ — ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم . « الكامل فى التاريخ » (بولاق ١٢٧٤ م) .
« أسد الغابة فى معرفة الصحابة » (القاهرة ١٢٨٥ هـ)

أحمد أمين : « فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٢٨ م) .
« ضحى الإسلام » (القاهرة ١٩٣٣ — ١٩٣٦ م) .
« عكاظ والمربد » (بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٣٣ م) .
« الفتوة فى الإسلام » (بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٤١ م) .
« الصعلكة والفتوة فى الإسلام » — سلسلة اقرأ رقم ١١١ .

الأزرق : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد .
« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار »

(المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ نشر الأستاذ رشدى الصالح) .

إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٢٧ م) .

أسعد داغر : « حضارة العرب » (القاهرة ١٩١٨ م) .

إسماعيل أحمد أدهم : « علم الأنساب العربية » (القاهرة ١٩٣٨ م) .

الاصطخرى : أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى « مسالك الممالك » (ليدن ١٣٧٣ هـ) .

الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين . « الأغانى » (بولاق ١٣٨٥ هـ) ، والجزء ٢١ طبع ليدن سنة ١٣٠٥ هـ والأجزاء التى نشرتها دار الكتب منذ سنة ١٩٢٧ م .

الألوسى : السيد محمود شكرى . « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » سنة ١٩٢٤ م .

البلاذرى (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر . « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ م) .

البغدادى : أبو الفوز محمد أمين . « سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » (بمباى ، ١٩٢٦ هـ)

البغدادى : عبد القادر بن عمر . « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » (بولاق ، ١٢٩٩ هـ)

البكـــــــــــــرى : عبد الله بن عبد [illegible] بن محمد بن عمر .
« معجم ما استعجم » تحقيق الأستاذ مصطفى السقا . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

الـــــــــــــبيرونى : أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمى .
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » (ليبسك ١٨٧٨ م) .

التبريـــــــــــــزى : أبو زكريا يحيى بن على محمد بن بسطام .
« شرح أشعار الحماسة » .
نشر الأستاذ فريتاج ، ١٨٢٨ م .

الثعالبى النيسابورى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل .
« غرر أخبار ملوك الفرس ومصيرهم »
(باريس ١٩٠٠) .

الثعالبـــــــــــــى : أبو منصور عبد الملك بن محمد .
« لطائف المعارف » (ليدن ١٨٦٧) نشر الأستاذ جونج .

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) : أبو الفرج عبد الرحمٰن بن على بن محمد .
« سيرة عمر بن الخطاب » .

الجهشيارى (٣٣٠ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨ م) .
« نشره الأستاذ مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى » .

الجاحظ (٢٥٥ هـ) : أبو عثمان عمرو بن بحر .
« كتاب التاج فى أخلاق الملوك » .
حققه المرحوم الأستاذ أحمد زكى (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م) .

ابن حجر العسقلانى (٨٥٣ هـ) : شهاب الدين بن على .
« الإصابة فى تمييز الصحابة » (القاهرة ١٩٢٣ م) .

حسن إبراهيم حسن : « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية »
تأليف فان فلوتن (مترجم إلى العربية) .
« الدعوة إلى الإسلام » تأليف توماس أرنولد (مترجم إلى العربية ١٩٤٧) .
« تاريخ الإسلام السياسى » الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ (القاهرة ١٩٤٥ — ١٩٤٨ م) .

ابن عبد الحكم (٣٥٣ هـ) : أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله .
« فتوح مصر والمغرب » .

ابن أبى الحديد (٤٠٤ هـ) : الشريف محمد بن أبى أحمد الحسنى .
« شرح نهج البلاغة » ، (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد
« المسالك والممالك » ، (ليدن ١٣٠٦ هـ) .

الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على
« تاريخ بغداد أو مدينة السلام » (القاهرة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٦م) .

خفاجي (محمد عبد المنعم) : «الحياة الأدبية في عصر بني أمية» القاهرة ١٩٥٤
« الإسلام والحضارة الإنسانية » القاهرة ١٩٦٠ .

ابن خلدون (٨٠٨هـ) : عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد جابر :
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » .
« المقدمة » (بيروت ١٩٠٠ م) .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر
« شمس الأعيان وأنباء أبناء الزمان » .
(بولاق ١٢٨٣ هـ) والمطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ .

دحلان : أحمد زيني « السيرة النبوية والآثار المحمدية » ، (على هامش السيرة الحلبية — القاهرة ١٣٢٠ هـ) .

ابن سعيد : علي بن موسى المغربي « كتاب المغرب في حلي المغرب »
(ليدن ١٩١٨ — ١٩١٩ م) .

ابن سعد (٢٣٠ هـ) : محمد .
« كتاب الطبقات الكبير » (ليدن ١٣٢٢ هـ) .

السيوطي (٩١١ هـ) : الحافظ جلال الدين عبد الرحمٰن .
« تاريخ الخلفاء » ، (١٣٥١ هـ) .

سيد أمير على : « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » . ترجمه من الإنجليزية الأستاذ رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨ م) .

السمهودى : أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد . « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » (القاهرة ١٢١٦ هـ)

السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله الخثعمى . « الروض الأنف » (القاهرة ١٩١٤ م) .

ابن سيده : أبو الحسن على بن إسماعيل ، « المخصص » (القاهرة ١٣٢١ هـ) .

سيدة إسماعيل كاشف : « مصر فى فجر الإسلام » ، (القاهرة ١٩٤٧) . « مصر فى عصر الإخشيديين » (القاهرة ١٩٥٠) .

شرف (عبد العزيز) : « السيرة النبوية والإعلام الإسلامى » ، بالاشتراك مع د . خفاجى ، القاهرة ، مكتبة مصر .التفسير الإعلامى للأدب العربى — دار الفكر العربى .

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم . « الملل والنحل » (لندن ١٨٤٦ م) .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . « تاريخ الرسل والملوك » (طبع بريل بمدينة ليدن من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٩٨ م) .

الطرطوشي : محمد بن الوليد الفهرى .
« سراج الملوك » (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .
طه حسين : الفتنة الكبرى ـــ عثمان » (القاهرة ١٩٤٨م)
« على وبنوه » (القاهرة ١٩٥٣ م) .
عبد الحميد العبادى : « صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » (الإسكندرية ١٩٤٨ م) .
« أحابيش قريش ـــ هل كانو عرباً أو حبشاً ؟ » بحث فى مجلة كلية الآداب ـــ مايو ١٩٣٣ م .
ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسى .
« العقد الفريد » .
نشره الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبيارى ، (القاهرة ١٩٤٠ م) .
« بلوغ الأرب فى مآثر العرب » (مطبعة الصفا فى لبنان ١٣١٩ هـ) .
على إبراهيم حسن : « النظم الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٩ م) .
« نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب » ، (القاهرة ١٩٥٠ م) .
« مصر فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٥١ م) .
أبو الفداء : إسماعيل بن عماد الدين ، صاحب حماة .
« المختصر فى أخبار البشر » (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ـــ والقاهرة ١٣١٥ هـ) .

ابن قتيبة الدينورى : أبو محمد عبد الله مسلم .
« المعارف » (القاهرة ١٩٣٤ م) .
« الميسر والقداح » (القاهرة ١٩٤٢ م) .

القلقشندى : أبو العباس أحمد .
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » (القاهرة ١٩١٣ ــ ١٩١٩ م) .

الكاشانى : الحنفى .
« بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع » (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .

الكندى (٣٥٠ هـ) : أبو عمر محمد بن يوسف .
« كتاب ولاة مصر » .
نشره روفن جست باسم « كتاب الولاة وكتاب القضاة » لندن ١٩١٧ .

الماوردى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى .
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ ــ ولندن ١٩٠١ م) .

متز : آدم .
« الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » .
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

المسعودى (٣٤٦ هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » (القاهرة ١٠٢٣ هـ)

أبو المحاسن (٨٧٤هـ) : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »
(القاهرة ١٩٣٠ ــ ١٩٤٨) .

المقرى (١٠٤١ هـ) : شهاب الدين أحمد بن محمد .
« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .
(بولاق ١٢٧٩ هـ ــ ١٨٦٢ م) .

ابن مسكويه (٤٣١ هـ) : « تجارب الأمم وتعاقب الهمم » عنى بتصحيحه المذرور . (القاهرة ١٢٣٢ هـ ــ ١٩١٤ م) .

المبرد : أبو العباس محمد .
« الكامل فى الأدب » ، (القاهرة ١٢٢٤ هـ) .

محمد جمال الدين سرور : « قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ » (القاهرة ١٠٥٢ هـ) .

محمد الخضرى : « تاريخ الأمم الإسلامية » .

محمد كرد على : « الإسلام والحضارة العربية » (القاهرة ١٩٣٤ ــ ١٩٣٦ م) .

المرزوقى : أبو على الأصفهانى .
« الأزمنة والأمنة » (طبع مجلس دائرة المعارف بالهند ١٣٣٢ هـ) .

المقريزى : تقى الدين أبو محمد أحمد بن على .
« النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » ، (ليدن ١٨٨٨ م) .

« شذور العقود فى ذكر النقود » (المطبعة
الحيدرية فى النجف ١٣٥٦ هـ) .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .
« لسان العرب » (بولاق ١٣٠٢ — ١٣٠٧ هـ) .

ابن النديم (٣٨٣ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحاق .
« الفهرست » (ليبسك ١٨٧١ م) .

النووى (٦٧٦هـ = ١٢٧٧م) : أبو زكريا محيى الدين بن شرف .
« تهذيب الأسماء واللغات » (القاهرة) .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى .
« سيرة رسول الله » (طبع جوتنجن ١٧٦٢ م) .

الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب .
« الإكليل » نشره الأب أنستاس مارش الكرملى (بغداد ١٩٣١)
١٠٥٦ م) :

أبو هلال الصابى (٤٤٨ هـ) « كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء »
(طبعة هـ . ف . امدروز) .

الواقدى (٢٠٧ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عمر .
« فتوح الشام » (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

وستنفلد : فردناند .
« تواريخ مكة المشرفة » (مدينة غتنفة ، ١٢٨٥ هـ) .

وهب بن منبه : « تاريخ ملوك حمير » .

لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » (بيروت ١٩١٢ م) .

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح .
« تاريخ اليعقوبى » (النجف ١٣٥٧ هـ) .

يوسف رزق الله غنيمة : « الحيرة ــ المدينة والمملكة العربية » (بغداد ١٩٣٦م) .
« نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق » (بغداد ١٩٢٤ م) .

أبو يوسف (١٩٢هـ = ٨٠٧م) : يعقوب بن إبراهيم .
« كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢ هـ ، والمطبعة السامية بمصر ١٣٤٦ هـ) .

مصــــادر مخطوطـــة

ابن الضياء الملكى : أبو التقا محمد بهاء الدين بن الضياء الملكى العمرى .
« تاريخ مكة المشرفة » .
(مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ) .

العجيمـــــــــى : حسن بن على .
« إهداء اللطائف من أخبار الطائف »
(مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٧ تاريخ) .

ابـــــن عراق : على بن محمد .
« نشر اللطائف فى قطر الطائف » ،
« مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٣٣ تاريخ) .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٤١٠١ لسنة ١٩٩٢
I.S.B.N
977— 269 — 003 — O